الإمام الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره الشريف

رائد حركة التغيير في العراق



تأليف

عز الدين سليم

من منشورات المجلس الأعلىٰ للثورة
الإسلامية في العراق



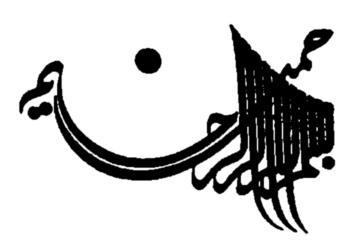
رائد حركة التغيير في العراق

تأليف
عز الدين سليم



هوية الكتاب

أسم الكتاب: الإمام الشهيد محمد باقر الصدرر
رائد حركة التغيير في العراق
المؤلف: عز الدين سليم
من منشورات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق
تاريخ الطبع: ربيع ١٤١٦ هـ. ق
الكمية: ١٠٠٠ نسخة


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلىٰ المفكر الإسلامي آية الله العظمىٰ الشهيد

السعيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه

أقدم هذه الصفحات مليئة بالحب وعرفان الجميل

المؤلف

١٤١٦هـ

المقدّمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ محمد وآله الطيبين الطاهرين .

وبعد :

لم أجد للتقديم لهذه الأبحاث خيراً من هذه الكلمات التي كتبتها في جمادىٰ الثانية عام ١٤٠١ هـ لتكون «كلمة التحرير» لمجلة «الجهاد» الشهرية التي كانت تصدر بإشرافي في طهران منذ العدد الأول الصادر في جمادىٰ الأولىٰ عام ١٤٠٠ هـ حتىٰ العدد السادس عشر الصادر في شعبان ١٤٠١ هـ حيث تركت الاشراف علىٰ المجلة المذكورة التي احتجبت عن الصدور بعد العدد المذكور بعد أحداث مريرة مرت بها الحركة الاسلامية العراقية في ذلك الوقت نأمل أن تحفظها ذاكرة التاريخ ، فترويها للأجيال صريحةً دون تعتيم أو تزييف .. وما عند الله خير للأبرار .

أجل رأيت من الأنسب ان أقدم لهذه الابحاث بكلمة التحرير التي كتبتها لمجلة «الجهاد» في عددها الرابع عشر في ذلك التاريخ حيث صادف صدور العدد المذكور الذكرىٰ السنوية

الأولىٰ لشهادة الأُستاذ الإمام آية الله العظمىٰ السيد محمد باقر الصدر قدس الله نفسه الزكية .

وهذه هي الكلمات التي حملتها «كلمة التحرير» المذكورة :

﴿ان إبراهيم كان أُمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من ا لمشركين﴾ .

قليل من الرجال يعيشون بين أممهم ، لا كأفراد وانما يعيشون ويموتون كقضية تترك بصماتها بقوة ووضوح على مسيرة حياة شعوبهم في الفكر والعمل والتوجهات.

ان اختراق هذا النمط من الرجال «لحواجز الفرد» يأتي ضمن مواصفات وشروط لا تتوفر إلّا لقلة قليلة من الرجال .

وحتى هذه المواصفات التي تكسر حواجز «الفردية» وتحوّل اولئك الرجال إلىٰ «قضية» تختلف فيما بينهم .

فمنهم من يبرز كبطل وطني يصعِّد قضية الصراع بين شعبه وغاصبيهم من غزاة محتلين أو طغاة محليين ويرسم لشعبه منحنىٰ الخلاص .

ومنهم من يطرح بين يدي أمته «اطار الخلاص» من خلال صيغ فكرية تبلور مواقف الأُمة وتثري المسيرة وتوفر مبررات الانعتاق .

وقلما يشهد التاريخ نموذجاً من الرجال يقدم «اطروحة الخلاص» ويتحرك بمستوىٰ المضمون علىٰ طريق القيادة لأُمته للوصول بها إلىٰ ساحل الخلاص حيث يبرز في هذه الظاهرة «المفكر القائد» بوضوح وقوة .

لقد كان محمد باقر الصدر رضوان الله عليه مصداقاً حياً

لظاهرة «المفكر القائد» ، وقد تحرك علىٰ مستوىٰ هذه الظاهرة حتىٰ توج حياته بالشهادةِ في سبيل الله تعالىٰ .

فمحمد باقر الصدر كان عَلَماً في الفكر الإسلامي والإنساني قلّما يجود الزمان بمثله .

واذا كانت الأُمة الإسلامية لم يتيسر لها بعد ان تفهم هذا الرجل العملاق في فكره وعطائه وخصبه «لظروف ذاتية وموضوعية» فان الصدر سيتحول في القادم من أيام أمتنا الإسلامية وعلىٰ طول الوطن الإسلامي الكبير إلىٰ «قضية» ومنبع تنهل منه الأجيال ، وتستلهم منه الأصالة والوضوح والقوة والشموخ .

وأحسب أن شهادة محمد باقر الصدر ، ومظلوميته ، وما لاقىٰ من العنت في سبيل الله ستعجل في تحويله إلىٰ «قضية إسلامية» تتحرك بمساحة خارطة العالم الإسلامي كله ! !

كما ان محمد باقر الصدر سيتحول إلىٰ «ثأر تأريخي» تحمله أجيال من الأُمة .

واذا كانت صيحات «التوابين» قد تأخرت قليلاً عن اعلان الزحف لادراك الثأر من يزيد عراق اليوم وزبانيته ، فأن هذه الصيحات تنتظر «ساعة صفر محددة» .

ويبدو ان توابي هذا العصر سيحملون راية «المختار الثقفي» كي لا تكرر سلبيات «عين الوردة» من جديد ، ولكي لا يكون الزحف من أجل التكفير عن ذنب يؤنب ضمائر الرجال فقط وانما من أجل أن تتحقق أهداف الشهيد وتطهر أرض العراق من رجس الصليبية الطائفية الحاقدة ، وتقوم دولة القرآن .

ان «الحـــركة الاســلامية» فـي العـراق التـي اعـطاها شـهيد المسيرة عصارة فكره وخصوبة وعيه ، وساهم بالكثير الكثير من اجل ارساء بنائها الشامخ لتكون كما يقول رضوان الله عليه... «أمل الأمة» .

ان الحركة الاسلامية في العـراق تشـعر بـعمق ان «قـضية الصدر» قد اضافت إلىٰ قضيتها الأساسية «قضية» واضافت إلىٰ إصرارها إصراراً وقوّة ، وهي واثقة مـن ان الله الكـبير المـتعال سينزل نصره علىٰ المجاهدين الصادقين فـي مـعركة الإسـلام الكبرىٰ التي يخوضها شعب الشهيد الصدر ضد جلاديه : اعداء الإنسان والإسلام والحرية.

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون والعاقبة للمتقين﴾ للمتقين﴾ .

مجلة الجهاد / عدد ١٤ الصادر في
جمادىٰ الثانية ١٤٠١هـ
بطهران

السيد الصدر

رائد حركة التغيير في الأُمة

مقدمة :

بعد انهيار آخر حصون المسلمين أمام التيار الحضاري الأوربي المدجج بالسلاح في بداية القرن الميلادي الحالي[1] تعالت استغاثات المخلصين من المدركين لجسامة الخطر المحدق بمسيرة الإسلام ومستقبل المسلمين .

وفي بداية المواجهة ظن «المستغيثون» من المسلمين ان صيحات الاستغاثة ستحقق نفس النتائج التي حققتها استغاثات مطلع القرن الحادي عشر الميلادي حين واجه المسلمون الغارة الصليبية علىٰ العالم الإسلامي ببطولات نادرة اعادت إلىٰ التاريخ صدىٰ صليل سيوف المسلمين

---

(١) بدأ الغزو الأوربي لبلاد المسلمين يحقق أولىٰ نجاحاته منذ القرن السادس عشر الميلادي ، وأتم مهمة الاجتياح لحصون المسلمين في بداية القرن الحالي .

الفاتحين ، واعادت إلىٰ الذاكرة الإنسانية صوت الدعـوة إلىٰ الجهاد من أجل حماية بيضة الإسلام وحوزة المسلمين .

بيد ان اولئك المخلصين حين لم تحقق دعواتهم نفس الآثار أدركوا ان الظروف تبدو مختلفة وان المسلمين يغطون في نـوم يشد الاجفان شدا .

وقد تفاوتت تلك الدعوات بين دعـوة بـقيت حـبيسة في اطار حماسة فرد واحد متوثب الشعور والحس وبـين دعـوة تحولت إلىٰ وثبة بلد أو قطاع مـن الأُمـة استبسل في وجـه الغزاة ، ثم توارى عن مسرح الأحداث مظلوماً .

وقد اجاد المرحوم مالك بن نبي المفكر الجزائـري المسـلم حين اطلق علىٰ دور رجال تـلك المـرحـلة بـدور الأبـطال حيث لمـع في ليـل تـلك الحـقبة المـظلمة مـن تـاريخ الأُمـة الإسلامية أسم جمال الديـن الأفـغاني ، والمـهدي الكـبير في السودان ، ومحمد سـعيد الحـبوبي ، ورجـال جمـعية النهـضة الإسلامية في العراق ، والحـركة السـنوسية في ليـبيا ، وعـبد الكريم الخطابي في المـغرب العـربي ، وفـضل الله النـوري في ايران ، وأمثال أولئك كثيرون لمـعوا كـالنجوم في ليـل محـنة

العالم الإسلامي الكبير ، ثم اختفوا لينحني التاريخ اجلالاً لبطولاتهم المجيدة .

لقد مثلت تلك البطولات «صبابة» الاستبسال والمقاومة في دنيا المسلمين وبداية المواجهة للغزو الأوربي الجديد ورغم كل ما قيل أو يقال ، فأن تلك الحركات الباسلة ، قد ولدت قناعة لدى الواعين من ابناء الأمة : ان الخلل بات قائماً في المحتوىٰ الداخلي للأمة ، وعي الأمة ، وشعورها بالمسؤولية ، وشخصيتها المعنوية ، وما لم يتغير هذا الواقع الذي طرأ علىٰ تركيبة الأمة الإسلامية ، فأن أي جهد آخر مهما بدا كبيراً وهاماً ، فأن آثاره الإيجابية ستضعف تحت مطارق شراسة الهجمة الحضارية الجديدة وما تمتلك من أدوات ووسائل فتاكة .

ومنذ نهاية عشرينات القرن الحالي بدأ الواعون ينحون نحواً تغييراً في غمرة عملية رفع الأمة إلىٰ مستوىٰ استئناف مسيرة الحياة والنهضة مجدداً متخذين من قوله تعالىٰ :

﴿**ان الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم...**﴾ مناراً للهداية علىٰ هذا الطريق .

وحين نضع تحديداً زمنياً لبداية الوعي التغييري الذي بدأ ينساب في ربوع المسلمين فأنما نضعه بلحاظ الآثار التي نتجت عن هذا التوجه علىٰ صعيد الواقع ، وإلّا فأن ارهاصات الحديث عن التغيير وضرورته بدأ مبكراً ، وفي كتابات جمال الدين الأفغاني في العروة الوثقىٰ آثار لهذا المنحى ، وفي مؤلفات الشيخ عبد الأعلىٰ المودودي كذلك غير ان التخطيط على مستوىٰ متطلبات هذا الفهم لطبيعة المهمة بدأ واضحاً في حركة الإخوان المسلمين التي أسسها المرحوم حسن البنا في ذي القعدة عام ١٣٤٧ هـ [1] ، وما خلّفته من تيار في بلدان مسلمة كثيرة .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الوعي علىٰ ضرورة التغيير يتنامىٰ لدىٰ طلائع الأمة ، وقد نجح المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي رحمه الله تعالىٰ في بلورة حيثيات النهضة منذ نهاية الأربعينات حيث ظهر كتابه : شروط النهضة باللغة الفرنسية عام ١٩٤٨ م وفي سلسلة مشكلات الحضارة التي دبجها يراعه العبقري حدد المرحوم ابن نبي الخطوات اللازمة

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية / حسن البنا : ص ٧٢ ط ٣ بيروت ١٩٧٤م .

لمسيرة اسلامية راشدة تستأنف صناعة المجد الإسلامي الجديد .

وقد التقىٰ تطور الفكر الإسلامي التغييري الحديث ابتداء بمقالات العروة الوثقىٰ ومروراً بكتابات الشيخ المودودي وحسن البنا وانتهاءً بنتاجات مالك بن نبي وتقي الدين النبهاني التقىٰ هذا التطور بعبقرية شامخة شابة تمثلت بالمفكر الإسلامي آية الله العظمىٰ السيد محمد باقر الصدر ﭬ فاعطىٰ هذا التطور بعدين اثنين معاً :

* تطوير الفكر التغييري الذي اثبت أصالة وجدارة .

* واستحداث وبلورة جوانب من الفكر التغييري ، وتقديمه كمشاريع لنهضة الأمة في ضوء الإسلام وواقع الأمة الجديد .

* وبناء علىٰ ذلك ، فليس الصدر رحمه الله تعالىٰ وريثاً لعباقرة هذا القرن من المسلمين علىٰ طريق النهوض الإسلامي فحسب ، وانما كان وريثاً ومجدداً وحادياً لقافلة النهضة الإسلامية في العقدين الأخيرين من هذا القرن .

محمد باقر الصدر يبلور خط التغيير

قضية التغيير لدىٰ المرجع الشهيد ﴿قدس سره﴾ تشكل الهم الأكبر من بين همومه الكبيرة الكثيرة ، بل ان همومه جميعاً تتفرع من ذلك الهم الأساسي .

واذا استقرأنا ما كتبه المرجع الشهيد ﴿قدس سره﴾ وما تحدث حوله وما نهض به من نشاط في سياق العمل في سبيل الله تعالىٰ لوجدنا الملامح الآتية بارزة علىٰ صفحات ذلك الهم .

* حدود التغيير ومساحته .

* المحور الذي ينصب عليه التغيير .

* شروط النهضة التغييرية لهذه الأمة .

* مشاريع للكفاح من أجل التغيير .

التغيير : مساحته وابعاده

ما هو التغيير الذي يفترضه المرجع الشهيد ﴿رضي الله عنه﴾ للأمة لكي يصدق عليها القول إنها أمة مغيَّرة بالاسلام ؟

هذا التساؤل تحتاج الإجابة عليه إلىٰ معرفة نظرة السيد الشهيد إلىٰ حدود التخريب الحضاري الذي لحق بالأمة وإلىٰ أي مدىٰ نجح الأوربيون الغزاة في النأي بالأمة المسلمة عن الإسلام : آدابه وقوانينه واحكامه وعقائده يقول (رحمه الله تعالىٰ) موضحاً مساحة التخريب الذي لحق بالأمة من جراء الغزو الأوربي للعالم الإسلامي : «أخذ العالم الإسلامي ينفتح علىٰ حياة الإنسان الأوربي ويذعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن ايمانه برسالته الأصيلة وقيمومتها علىٰ الحياة البشرية»[1].

«وقد عبرت التبعية في العالم الإسلامي لتجربة الإنسان الأوربي الرائد للحضارة الحديثة عن نفسها بأشكال ثلاثة مترتبة زمنياً ، ولاتزال هذه الأشكال الثلاثة معاصرة في اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي :

الأول : التبعية السياسية التي تمثلت في ممارسة الشعوب الأوربية الراقية اقتصادياً حكم الشعوب المتخلفة بصورة

---

(١) مقدمة الطبعة الثانية لكتاب اقتصادنا / للسيد الشهيد الصدر قدس سره : ص٨ وما بعدها .

مباشرة.

الثاني: التبعية الاقتصادية التي رافقت قيام كيانات حكومية مستقلة من الناحية السياسية في البلاد المختلفة، وعبرت عن نفسها في فسح المجال للاقتصاد الأوربي لكي يلعب علىٰ مسرح تلك البلاد بأشكال مختلفة ويستثمر موادها الأولية ويملأ فراغاتها برؤوس أموال اجنبية.

الثالث: التبعية في المنهج التي مارستها تجارب عديدة في داخل العالم الإسلامي[1] ويوضح مساحة هذا الإنهيار أمام الحضارة الأوربية بما يلي:

«فقد استعمل الغزاة الآثمون كل الطرق والأساليب للقضاء علىٰ وعي الإسلام في ذهنية الأمة، وحجب أضوائه وأنواره عنها بما نشروه هنا وهناك من مفاهيمهم وأفكارهم، وتشويهاتهم للإسلام المشرق العظيم، وهكذا أصبحت الأمة بعد أن نفذ أعداؤها فيها مخططهم الفظيع، وهي لا تعرف من الإسلام شيئاً واضحاً محدداً أو تعرف ما زوّره المستعمرون

---

(١) المصدر السابق: ص ٩.

من أفكاره وحـقائقه . .»[1] . «الطـريق طـويل لأن مـيوعة الأمة التي انحدرت اليها ، وغرابة المعطيات الإسـلامية اليـوم علىٰ أفكارها ، وعقولها التي تعودت الابتعاد عن الإسـلام في واقع الحياة ، والاستعمار الغـاشم الداهـية الذي يـقف للامـة بالمرصاد والحضارة الغربية بكل حماتها ودعاتها ، حواجز في الطريق»[2] .

فمن خلال هذه المقاطع من أحاديث السيد الشهـيد رضي الله عنه وكتاباته تتجلىٰ تصوراته العـميقة لحـجم المحـنة الحـضارية ، وآثارها في كيان الأمة المسلمة كنتيجة للـغزو الأوربي الذي تهاوت أمامه السدود ويمكـننا ان نسـجل تـصوره للـمأساة بالنقاط التالية :

١ ـ اذعـان الإنسـان المسـلم لإمـامة الإنسـان الأوربي وقيمومته الفكرية والحضارية علىٰ حياة الأُمم .

---

(١) مجلة الأضواء ع١ س١ /٩١ حزيران /١٩٦٠م النجف الأشرف (موضوع رسالتنا : ص٢) .

(٢) دروس من القرآن الكريم دراسة للسيد الشهيد (ره) كتبها لمـجلة الأضواء س٢ ع٣ ونشرته المكتبة الإسلامية الكبرىٰ في طهران مع دراسات أُخرىٰ تحت عنوان : «دراسات قرآنية للسيد الشهيد رضي الله عنه .

٢ ـ تنازل المسلم عن قيادته للبشرية وشعوره بالضعة أمام الإنسان الأوربي ، واستلهامه من الحضارة الغازية «البديل» لحضارته الإلهية العظيمة .

٣ ـ التبعية الذليلة للنفوذ الأوربي ، والقبول بسياسة النهب الاستعماري لثروات المسلمين باستثمار المواد الأولية ، وملْ الفراغات الاقتصادية برؤوس أموال اجنبية اضافة الىٰ اتباع سياسة اقتصادية استهلاكية خاسرة .

٤ ـ غياب وعي الأمة عن معرفة الإسلام ، وحقائقه ، وأهدافه في إثارة الحياة ، وصنع المجد ، وإقامة صروح الحضارة الإلهية .

٥ ـ غرابة المعطيات الإسلامية عن الأمة ، والتعود علىٰ الإبتعاد عن مفاهيم الإسلام في الحياة ، وقوة النفوذ الاستعماري وهيمنته في بلاد المسلمين ، اضافة إلىٰ قوة الحضارة الأوربية ، وتمتعها بالحماية من الأسياد والعملاء السياسيين والفكريين تشكل جميعها حواجز في طريق النهضة الإسلامية .

إن هذا الفهم لطبيعة المشكلة الحضارية التي تعاني منها

الأمة المسلمة هو الذي شكل الأرضية لتصورات الشهيد (ره) عن حدود التغيير المطلوب الذي ينبغي أن يمارسه الواعون من أجل تحقيق الإنعتاق لهذه الأمة المغلوبة علىٰ أمرها .

والسيد الشهيد (ره) قبل أن يعكس واقع الأزمة الحضارية للأمة يضع أمامه تصورين عن وضع الأمة المسلمة ، ثم يضع لكل حالة تصوراً أيضاً : ـ

أ ـ فمرة يفترض أن أزمة الأمة مكرسة في إنحراف جزء أو أجزاء من حياة الأمة المسلمية عن الإسلام كما في حالة إنحراف الحكم عن قوانين الإسلام في بعض تصرفاته أو ظهور حالات الإنحراف الاجتماعي كتعاطي الخمر لدىٰ قطاع من الأمة وما إلىٰ ذلك فحين تكون الأزمة الحضارية للأمة محدودة في هذا الإطار مع إحتفاظ الأمة بالإسلام كقاعدة فكرية لها ، ومنطلق للتشريعات الدستورية للحكم، ومنبع أساسي لمختلف ألوان النشاط الفردي والإجتماعي والإقتصادي ، فأن العلاج يتطلب قيام دعوات إصلاحية تهدف إلىٰ معالجة ظواهر الشذوذ عن الإسلام ، ومنابعها .

ب ـ ومرة «يفقد الإسلام مركزه من القاعدة الأساسية ،

ويستبدل بغيره من القواعد المعادية أو اللاقاعدة ، فأن الدعوة الإسلامية في هذه الحالة يجب أن تكون إنقلابية ، وهذا هو الواقع الذي تعيشه الأمة منذ نهاية الحرب الأولىٰ إذ قوض المستعمرون الدولة الإسلامية ، ودخلوا بلاد المسلمين ، وتقاسموها فيما بينهم وما أن تمت عملية الإستعباد هذه للعالم الإسلامي حتىٰ تم بذلك إنقلاب كلي في حياة الأمة ، فأقصيت العقيدة الإسلامية عن موقعها من القاعدة الرئيسية لكيان الأمة ، ووضعت الأمة في اطر فكرية وسياسية غريبة عن عقيدتها من الديمقراطية الرأسمالية في كثير من المناطق الإسلامية ، ومن الاشتراكية في البلاد التي تخضع لحكم روسيا»[1] .

فلهذه الحالة المأساوية يقرر السيد الشهيد ﷺ ان عمل الواعين ينبغي ان يستهدف «استبدال جميع الأفكار والمفاهيم الأساسية عن الحياة والكون التي ترتكز الأنظمة السابقة للحكم والمجتمع عليها»[2] .

---

(١) نشرة دعوتنا إلىٰ الإسلام يجب أن تكون إنقلابية «كتبها السيد الشهيد (ره) سنة ١٩٦٠ م .

(٢) نفس المصدر

«ان قضية الإسلام في مثل هذه الظروف ليست قضية اصلاح بل قضية انقلاب» .

«ان الله لا يغير ما بقوم يعني تغيير أوضاع القوم ، شؤون القوم الأبنية العلوية للقوم ، ظواهر القوم ، هذه لا تتغير حتىٰ يتغير ما بأنفسهم إذن التغيير الأساسي هو تغيير ما بنفس القوم ، والتغيير النابع المترتب علىٰ ذلك هو تغيير حالة القوم، النوعية التاريخية الإجتماعية» «فالمحتوىٰ النفسي والداخلي للأمة كأمة لا لهذا الفرد أو لذلك هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغييرات في البناء العلوي للحركة التأريخية كلها»[١] «ان الصعاب التي تواجه الدعوة الإسلامية واجهت كل دعوة انقلابية في التاريخ ، فلو انها كانت صعاباً قاهرة لجمد التاريخ»[٢] .

ورغم ان الإمام الشهيد قدس سره يتبنىٰ العمل الإنقلابي الشامل لحياة الناس الفكرية والسلوكية والاجتماعية وسواها فأنه

---

(١) المدرسة القرآنية : محاضرات للمرجع الشهيد (رض) الدرس التاسع ألقاه في ١٧/ج ٢/١٣٩٩ هـ: ص ١٤١ ـ ١٤٢ ط. بيروت ١٩٨٠
(٢) دروس من القرآن الكريم مصدر سابق .

من جهة أُخرىٰ يؤمن أن مسيرة الحياة قد تخضع لتطورات ليست في الحسبان ، وقد تقع أحداث وأزمات توفر للعاملين في سبيل الإسلام فرصاً عظيمة لإستثمار الظروف بالشكل الذي يوفر لهم امكانية امتلاك مصادر القيادة الفكرية والسياسية في الأمة وهم في بداية الطريق الانقلابي وحينئذ يمكنهم ان يستفيدوا من فرصة امتلاك هذه القدرات لاستكمال عملية التغيير الشامل في الأمة من خلال هذه الامكانات التي اتيحت[1].

ومن أجل هذا فأن المرجع الشهيد رضي الله عنه لا يسجل إفتراضاً ان الوصول إلىٰ الحكم من قبل جهة إسلامية يعني تحقيق التغيير الإسلامي بمحتوىٰ الأمة الكامل فيقول بهذا الخصوص ما يلي : «...وحتىٰ إذا أصبح الحكم إسلامياً فأن هذا لا يعني في بعض الحالات الإنقلاب الشامل وانما هو الجزء الذي يختص بالحياة السياسية من الانقلاب»[2].

---

(١) ما نرتضيه من الدعوة الاصلاحية وما نرفضه منها : نشرة كتبها السيد الشهيد (رض) عام ١٩٦١ م .

(٢) ما نرتضيه من الدعوة الإصلاحية وما نرفضه منها : نشرة كتبها السيد الشهيد (رض) عام ١٩٦١ م .

شروط النهضة التغييرية لهذه الأمة

وفي خضم تحديده لطبيعة واقع المسلمين المعاش بعد عصر الاستعمار وسيطرة الحضارة الأوربية علىٰ مقاليد الحياة في بلاد المسلمين وما ينبغي أن تنهض به طلائع الأمة والحريصون علىٰ الإسلام من مهام .. في خضم هذا التحديد يتناول المفكر العظيم ﷺ دراسة الشروط الموضوعية لقيام أية نهضة حقيقية علىٰ ظهر هذا الكوكب ، ثم يحاكم هذه الشروط ويدرسها علىٰ ضوء واقع الأمة المعاش ، ويحدد ما تفتقر إليه هذه الأمة في مشروع نهضتها المطلوبة .

ففي بحثه المعنون «الشرط الأساسي لنهضة الأمة» الذي كتبه مفتتحاً به أوّل عدد من مجلة الأضواء النجفية المباركة الذي صدر في ٩ حزيران ١٩٦٠ م (أي قبل خمسة وثلاثين عاماً) يسجل المفكر الشهيد (ره) ثلاثة شروط لنهضة الأمة الحقيقية هي :

* المبدأ الصالح .

* الإيمان بذلك المبدأ .

* وفهمه.

وبعد دراسة هذه الشروط علىٰ ضوء الواقع المعاش للأمة يخلص المرجع الشهيد تتئُّ إلىٰ أن الأمة تمتلك المبدأ الصالح المتمثل بالرسالة الإسلامية في قيمها ومبادئها وقوانينها وهي تؤمن بها وتقدسها، غير أن إيمان الأمة برسالة الإسلام يعتريها الضعف، والسطحية والغموض، ويوعز السيد الشهيد هذه الظواهر في طبيعة إيمان الأمة برسالتها إلىٰ سوء فهمها لها، وعدم إدراكها لحقائقها، وغموض أهدافها لديها.

ثم ينتهي رضوان الله عليه إلىٰ حقيقة ان الشرط الأساسي لنهضة هذه الأمة منوط بفهمها واستيعابها لرسالة هذا الدين، وحمله مبدأ ومفتاحاً تفتح به كنوز خير الدنيا والآخرة.

«واما فهم الأمة للمبدأ ومفاهيمه وحقائقه فقد كان هو نقطة الضعف التي نجحت فيها عملية العمل بين الأمة والمبدأ، فقد استعمل الغزاة الاثمون كل الطرق والأساليب للقضاء علىٰ وعي الإسلام في ذهنية الأمة وحجب أضوائه وأنواره عنها بما نثروه هنا وهناك من مفاهيمهم وأفكارهم

وتشويهاتهم للإسلام المشرق العظيم . وهكذا اصبحت الأمة بعد أن نفذ أعداؤها فيها مخططهم الفظيع وهي لا تعرف من الإسلام شيئاً واضحاً محدداً أو تعرف ما زوره المستعمرون من أفكاره وحقائقه . وبهذه الطريقة وجد التناقض العجيب في كيانها فأصبحت لا تفهم الإسلام فهماً صحيحاً كاملاً بالرغم من انها ظلت باقية علىٰ ايمانها به ، وبطبيعة الحال ان انخفاض الوعي وحجب الصور الحقيقية الزاهية للاسلام عن الانظار كان سبباً في انخفاض الدرجة المعنوية للايمان نفسه وفقدانه لكثير من طاقاته الحرارية الجبّارة ، فمسألة الأمة اليوم ـ وهي تملك المبدأ الصحيح وتؤمن به ـ ان تقبل علىٰ تفهم إسلامها ووعي حقائقه واستجلاء كنوزه الخالدة ليملأ الإسلام كيان الأمة ، وأفكارها ، ويكون محركاً حقيقياً لها ، وقائداً أميناً إلىٰ نهضة حقيقية شاملة ، فالفهم العام للمبدأ الإسلامي إذن هو ضرورة الأمة بالفعل التي تستكمل الأمة به الشرط الأساسي لنهضتها(١).

ويشارك المفكر الشهيد ﷺ الاستاذ المرحوم مالك بن

---

(١) «رسالتنا» مجلة الأضواء العدد الأول / س١ عام ١٩٦٠ م .

نبي (ره) تصوره لشروط نهضة الأمة في كتابه الموسوم (شروط النهضة) الذي ظهرت طبعته الأولىٰ بالفرنسية عام ١٩٤٨ م ، وطبعته العربية الأولىٰ عام ١٩٦٠ م غير ان المرحوم ابن نبي يضيف للنهضة شرطين آخرين هما : العنصر الزمني والامكانات المادية التي تتاح للنهضة .

وفي نظري ان السيد الشهيد (ره) رأىٰ أن المحنة مكرسة في عدم فهم الإسلام من قبل الأمة ، والأمة إذا أدركت رسالتها وما ينبغي ان تنهض به من مسؤوليات وما ينبغي ان تأخذ من حقوق وما ينبغي ان يكون موقعها في الحياة ، فأنها حينئذ تعرف كيف تستثمر الوقت ، وتحوله إلىٰ رصيد ضروري للنهضة وكيف تحوّل (التراب) المهمل إلىٰ ثروات تساهم في إزدهار الحياة ، وفي إسعاد البشر .

فالسيد الشهيد ﵀ كان يحسب ان عنصر الزمن والامكانات الماديّةالمتاحة لدىٰ الأمة صحيح انهما يساهمان في صنع النهضة لكنهما متوفران قائمان ، ولكن الإنسان المدرك لمسؤوليته ، والأمة الهادفة لصناعة النهضة غير موجودة ، فاذا وجدت الأمة المؤمنة برسالتها العارفة

بمسؤوليتها التاريخية في الحياة ، صار بالإمكان ان تستثمر كافة الإمكانات في صنع النهضة ، وبناء المجد ، واستئناف المسيرة من أجل إقامة الحضارة .

مستلزمات نجاح المهمة :

رغم تبلد الأجواء العامة بغيوم الشك والقنوط بأي مشروع للنهضة ، فأن المفكر الشهيد ﷺ لم يكتف بوضع اطروحة المسيرة نحو التغيير الإسلامي الشامل ، وانما برَّر للمسلمين ـ فوق مبرر التكليف الشرعي للتحرك ـ قناعاته بفوز العاملين في سبيل الإسلام وانتصارهم رغم وعورة الطريق وشدّة المحنة ، وضعف الإمكانات المتاحة للعاملين يومذاك .

فالسيد الشهيد ﷺ اعتماداً علىٰ اشعاعات القرآن الكريم وتأكيدات العقيدة ، وايحاءات السيرة المباركة أكد ان العاملين في سبيل الإسلام يتمتعون بعناصر القوة ، وشروط النجاح في مجال الجهاد والكفاح مما لا تملكه أية رسالة أو مذهب إجتماعي سواه. فقد كتب رضوان الله عليه في العدد الثاني من مجلة الأضواء،الصادر في الأول من محرم من عام

(١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠م) مقالاً إفتتاحياً بعنوان «رسالتنا والدعاة» ضمّنه (ره) كافة المقومات الروحية للنجاح ، وكافة مستلزمات الفوز في تحقيق النهضة الإسلامية ، واستئناف المسيرة الربانية من جديد .

وقد شخّص المرجع الشهيد ﷺ تلك المقومات والمستلزمات كالآتي :

١ ـ الطابع التقديسي للرسالة الإسلامية الذي يتغلغل في ذهنية وقلوب اتباعها ، الأمر الذي تفقده الرسالات والدعوات الأرضية كافة ، ومن أجل هذا حاولت الماركسية ومذاهب أخرىٰ غيرها أن تضفي علىٰ نفسها (جلباباً) من التقديس لعلمها ان هذه الخصوصية تمنح اتباعها فاعلية داخلية لحملها في معترك الصراع الفكري والاجتماعي ، ولعل مشروع «الحتمية التاريخية» في بعض أهدافه يرجو توفير هذه الخصوصية .

غير أن الماركسية لم تحقق هدف وصولها إلىٰ مستوىٰ العقيدة الدينية ، لأن الماركسية وأمثالها من عقائد الأرض لا تخرج عن كونها إجتهاداً بشرياً قاصراً ، بينما تحقق العقيدة

الإسلامية في نفوس اتباعها قناعة انها فوق الاجتهاد والظن لصدورها من الكبير المتعال عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالىٰ.

وهكذا توفر هذه القناعة موجاً تقديسياً عارماً في نفوس المؤمنين بالإسلام، الأمر الذي يعزز الكفاح، ويدفع نحو ميادين الجهاد من أجل التغيير والنهضة الإسلاميه.

٢ ـ الأمل بالنجاح والفوز: يكرس السيد الشهيد حديثه عن الأمل الذي تشيعه الرسالة الإسلامية في نفوس اتباعها، وتقوي فيهم الرجاء بالنصر وتحقيق الأهداف من خلال حوالي خمسين ومائة كلمة، تتحرك أملاً ورجاءً بالانتصار والوصول إلىٰ الغايات، وبدلاً من أن نسجل إنطباعاً عما يسجله الإمام الشهيد ﵀ من أفكار حول الأمل وأهميته بالنسبة للعاملين في سبيل النهضة الإسلامية نترك الحديث للسيد الشهيد (ره) نفسه ليحدثنا عن هذه القضية فنختار المقاطع التالية مما دونه يراعه المسدد:

. «ثانياً: الأمل، فان الأمل هو بصيص النور الذي لا تستغني عنه كل الدعوات، واذا فقدت الدعوة أملها في

الفوز والنجاح فقدت وجودها ومعناها الحقيقي ، لأن الدعوة إلىٰ ما لا أمل في تحقيقه ضرب من العبث واللهو ، ولهذا كـان لا بد لمختلف الدعوات أن تفتش عن الأمل وتغذيه في ضـوء الظروف والأحداث ، وأن تتصيده من الظروف والأحـداث نفسها . وأما الدعوة إلىٰ الرسالة الإسلامية فـهي وان كـانت تعتمد في آمالها علىٰ الظروف والملابسات ولكنها تعتمد قـبل ذلك علىٰ الأمل الذي تزودها به طـبيعة الرسـالة الإسـلامية نفسها ، فأن هذه الرسالة تفتح بـنفسها للـدعاة أجـواء مـن الأمـل وتـقوّي مـن عـزيمتهم ورجـائهم ، ولا أدل عـلىٰ أن الدعاة الاسلاميين يقتبسون أملهم من الرسالة نفسها قبل أن يستوحوه من الظروف والأحـداث . ان الطـليعة الإسـلامية التي عاصرت محنة الإسلام في مكة وهو يومئذ وليد ضـعيف قد تجمعت القوىٰ عـلىٰ سـحقه وتألب الأعـداء عـلىٰ خـنقه كانت هذه الطليعة تهتز أملاً بل يقيناً بتهديم عروش الظـلم ، كل العـروش ، وانـقاذ بـلاد كـسرىٰ وقـيصر مـن كـسرىٰ وقيصر، ولا نبالغ إذا قلنا ان هذا الأمل الحي القوي من أكبر القـوىٰ المـعنوية التي كـان يـتمتع بهـا اولئك المسـلمون ويستعينون بها علىٰ الصبر والاستبسال في المحنة ولم يكن من

الممكن ان يخلق هذا الأمل في نفوس الدعاة شيء سوىٰ رسالة لها طبيعة الرسالة الإسلامية وطابعها الإلٰهي اليقيني ومددها الروحي والمعنوي فلم يكن المسلم ليستهين أو يضعف أمام الشدائد وبيده مشعل السماء ومن ورائه الوعود الإلٰهية بالنصر والتأييد . ولا زالت ـ حتىٰ الآن الرسالة الإسلامية كما كانت ـ قادرة علىٰ بعث الأمل في نفوس الدعاة ، بل هي تبعثه فعلاً بما يشع في نصوصها القرآنية والنبوية من وعد بالنصر إذا خلصت النية وأحكمت الخطة علىٰ أساس الإسلام[1] .

٣ ـ الدافع الذاتي في العمل من أجل الرسالة والنهضة :

ومما تتميز به الرسالة الإلٰهية عن سواها قدرتها علىٰ «تسخير الدوافع الأنانية والمثالية معاً لصالحه ، فان طبيعة الرسالة الإسلامية اقناع المسلم بأن الإخلاص لهذه الرسالة والدعوة اليها ، والتضحية في سبيلها مكسب شخصي ، قبل ان يكون مكسباً مثالياً أو اجتماعياً وربح لجزاء ونعيم لاحدود له قبل ان يكون عاطفة مثالية او اندفاعاً

(١) مقالة «رسالتنا والدعاة» للسيد الشهيد ﷺ .

تحمسياً»[1].

ان هذه الخصيصة لا تتوفر في أية رسالة اجتماعية علىٰ الإطلاق، الأمر الذي يفسر ان كثيراً من أصحاب الدعوات الاجتماعية الوضعية «يغرقون بعد زمن قصير أو طويل من دعوتهم أو انتصارهم في الدوافع الذاتية، وتخبو في نفوسهم تلك دوافع الذات بعد ان فقدت في نفوس الدعاة دوافعها المثالية»[2].

ان المرجع الشهيد (ره) حين يشخص هذه الحقيقة التي توفرها الرسالة الإسلامية للعاملين من أجل النهضة، في ضوء مبادئها انما يستلهم هذه الحقائق من الآيات الكريمة التي صدع بها الكتاب العزيز، وهو بصدد الحث علىٰ تقديم المزيد من التضحيات من أجل الرسالة المباركة، اضافة إلىٰ تذكير المؤمنين العاملين المضحين ان جهودهم وبذلهم من أجل الله والرسالة بعين الله تعالىٰ يوفيهم حسابهم ويجزيهم الجزاء الأوفىٰ، فلا ضير علىٰ الإنسان العامل ان يعطي

---

(١) مقالة «رسالتنا والدعاة» للسيد الشهيد ﷺ.

(٢) المصدر نفسه.

ويبذل مادام الربح مضموناً ، والتجارة لن تبور .

يقول تعالىٰ إشـارة لذلك : **﴿ذلك بأنــهم لا يـصيبهم ظـمأ ولانصب ، ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلّا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يــقطعون وادياً إلّا كـتب لهـم ليـجزيهم الله أحسـن مـا كـانوا يعملون﴾**[1] .

(١) التوبة : ١٢٠ ـ ١٢١ .

مشاريع الكفاح من أجل التغيير

البعض من المفكرين الاجتماعيين يقفون عند حدود التنظير للمسائل الاجتماعية ، يشيرون إلىٰ مواطن الخلل في مسيرة الناس ويدلون علىٰ سبل التخطي للأمراض والسلبيات ، والبعض من أصحاب المذاهب والمفكرين الاجتماعيين يمتلكون قابلية التنظير والتخطيط لتلك المسائل ويباشرون العمل من أجل تنفيذ تصوراتهم الاجتماعية من خلال المشاريع الفكرية والاجتماعية .

ولعل مالك بن نبي (ره) من الطراز الأول ، إذ كان الرجل نموذجاً في تقديم الإطروحات الإجتماعية كما يتضح ذلك من خلال سلسلته «مشكلات الحضارة» إلّا أن سيرة حياته لم تشعر بتأسيسه لمشاريع اجتماعية وسياسية هامة لتنفيذ أفكاره الثرة الكبيرة[1] بينما نجد الإمام الخميني قدس سره والشيخ أبو الأعلىٰ المودودي والاستاذ حسن البنا مثلاً من طراز آخر ، حيث جمعوا بين التنظير والعمل ، بين الاطروحة

(١) يلاحظ ذلك من خلال مذكراته «مذكرات شاهد القرن» .

والتنفيذ فقاد الإمام الخميني (ره) حركة الجهاد في ايران منذ مطلع الستينات حتىٰ توجت بالانتصار المؤزر واقامة الحكومة الإسلامية ، وأسس الشيخ المودودي حركة الجماعة الإسلامية في القارة الهندية وأسس الاستاذ البنا حركة الإخوان المسلمين في مصر .

وكان السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه من الطراز الذي يحرص علىٰ تنفيذ ما يدعو إليه من مفاهيم وأطروحات اجتماعية وسياسية وثقافية ، ومن هنا فأن النجف الأشرف لم تشهد في هذه الحقبة رجلاً من هذا القبيل ، ومهما قيل حول المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدس سره[1] من ناحية الوعي والحرص علىٰ الإسلام والأمة الإسلامية ، فأن أفكاره ووعيه ظلا مجرد صيحة غاضبة لله تعالىٰ ، لم يجسدها في حياته إلىٰ مشاريع مناسبة من أجل النهضة الإسلامية .

والسيد الشهيد رضي الله عنه قد بذل عدة مجهودات من أجل نهضة إسلامية حقيقية في الأمة ، وكانت كافة المشاريع التي

---

(١) توفي المرحوم الشيخ المجاهد كاشف الغطاء في ١٣٧٣/١١/١٨ هـ انظر مقدمة كتاب جنة المأوىٰ للمرحوم الشيخ تقديم السيد محمد علي القاضي الطباطبائي.

نفذها بنفسه أو ساهم فيها أكبر من المرحلة التي عاشها هـذا الرجل العملاق ، ومن جميل ما يذكر هـنا ان مشـاريع هـذه القمة الإسلامية قد كان فيها موفقاً إلىٰ حد بعيد كما سـيتضح من خلال هذا البحث المتواضع .

ويمكـــننا أن نـدرج مشـاريعه الاجـتماعية ـ السـياسية ـ الفكرية علىٰ الشكل الآتي :

١ ـ توفير البديل الفكري الإسلامي :

قد لا تتضح عظمة هـذه المـهمة لأبـناء هـذا الجـيل كـما اتضحت لأبناء الجيل الذي عاش مرحلة الخمسينات وبداية الستينات في العراق حـيث كـان الفكـر المـاركسي والمـوجة القومية الناصرية تسـيطر عـلىٰ الشـارع العـراقي ، ولم يجـد الباحث عن الإسلام غير المؤلفات الحـوزوية الاخـتصاصية القديمة ككتب الأصول والفقه وما إليها التي ليس مـن شأنهـا أن تعرض الإسلام بشكل يساهم في اقبال الأمة عليه .

وبينما يهزم الناس أمام الفكـر المـاركسي المـعروف بشـتىٰ الأساليب والصور التعبيرية ، يتصدىٰ فـقيه واعٍ يجـمع بـين حرارة الإيمان وحـرارة الشـباب ، وحـرارة الحـرص عـلىٰ

الإسلام مثل السيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه فينازل الماركسية والاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية ويكشف زيفها للامة وتآمرها علىٰ الإنسانية ، ثم يقدم البديل الإسلامي لعلاج مشاكل الإنسانية المعذّبة من خلال رسالة الدين الحق .

وهكذا تجبه الماركسية والرأسمالية بكتابي (فلسفتنا واقتصادنا) وسواهما ، ويوفر المفكر الشهيد قدس سره بذلك أمضىٰ سلاح للأمة في معترك فكري وسياسي رهيب ، لم يشعر بحقيقة أبعاده بشكل دقيق إلّا من عاش تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة .

وقد جاء الكتاب الأول مبرهناً علىٰ صحة النظرة الإسلامية للوجود ، وتهافت النظريات الأخرىٰ كافة ، وجاء (اقتصادنا) داحضاً للنظرية الاشتراكية والرأسمالية في الاقتصاد كاشفاً عن أصالة العلاج الإسلامي لمسائل الإقتصاد علىٰ مستوىٰ التملك والحرية الإقتصادية والمشكلة الإقتصادية والعدالة ، ومشكلة التوزيع ، ومسألة الأرض وما إليها ، إضافة إلىٰ تفنيد المادية التأريخية كعقيدة يعتمدها الماركسيون في تبرير المنحىٰ الإقتصادي لديهم .

وقد كان للكتابين المذكورين ـ رغم جلالة ما كـتبه يـراع السيد الشهيد ﷺ من تآليف أخرىٰ ـ الدور الأكبر في رفد المسيرة الإسلامية في العراق ومواجهة الغزو الفكري الأوربي في العراق .

ولا نـقصد ان نـطفف مـن القـيمة المـعنوية والحـضارية لمؤلفات السيد الشهـيد ﷺ الأخـرىٰ مـن أمـثال : البـنك اللاربوي في الإسلام والمدرسة الإسلامية ، والإسـلام يـقود الحياة ، والفـتاوىٰ الواضـحة، والأسس المـنطقية للاسـتقراء وغيرها ، فبعضها ماستظهر قيمته الكبيرة في السنين القـادمة ككتاب (الأسس) المذكور .

علىٰ ان مجموع ما انـتجه السـيد الشهـيد ﷺ مـن فكـر إسلامي كان له اليـد الطـولىٰ في تجـديد الصـيغة المـضمونية للنهضة الإسلامية الحـديثة في العـراق ، ولولا هـذا الإنـتاج الفكري الإسلامي الأصيل لفقدت النهضة الإسلامية العراقية كثيراً من شروط الأصالة والعمق والرشد .

٢ ـ نحو وجود إسلامي سياسي يملأ فراغ الساحة :

كان الوجود اللاإسلامي يملأ الساحة السياسية والفكرية في العراق منذ انتكاسة ثورة العشرين حتىٰ النصف الأول من الستينات ، وقد امتد نفوذ الحركات اللاإسلاميه إلىٰ المدن المقدسة والحوزات العلمية في العراق ، حتىٰ إذا قامت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م وفسح نظام عبد الكريم قاسم المجال للتحرك السياسي العلني امتلأ الشارع العراقي بالضجيج السياسي الذي ليس للإسلام فيه نصيب ، الأمر الذي ضاعف من قناعات بعض المؤمنين الواعين في الحوزة وخارجها لإرساء قواعد حركة إسلامية عام ١٩٥٨ م لتسد فراغ الساحة من الوجود الإسلامي السياسي .

وهكذا كان . . وكان السيد الشهيد ﵀ لولباً لهذا التحرك الإسلامي السياسي الوليد ، وقد أطلق السيد الشهيد (ره) علىٰ ذلك العمل الإسلامي السري «الدعوة الإسلامية» وأعطاه الكثير من وقته خصوصاً في سني تأسيسه الأولىٰ . .

وقد باشر المفكر الشهيد رضي الله عنه عملية التنظير الفكري لذلك العمل في خطوطه العريضة لتكون منطلقاً في العمل، وبصيرة في التوجه والحركة.

ونسجل بعض الخطوط الفكرية العريضة التي وضعها السيد الشهيد رضي الله عنه لذلك الوليد كأطار عام لحركته العامة:

١ ـ الصيغة الإنقلابية التغييرية لفكر الناس وسلوكهم اللاإسلامي هدف مركزي لهذه الحركة[١].

٢ ـ تبني مشروع المرحلية والتدرج في اسلوب الكفاح والمواجهة[٢].

٣ ـ إقرار الأعمال والنشاطات الإصلاحية إذا توفرت ظروفها وكانت تقع ضمن مشروع التغيير العام[٣].

٤ ـ محاكاة الأمة التي انشأها النبي الخاتم صلى الله عليه وآله في فكرها

(١) نشرة «دعوتنا إلى الإسلام دعوة تغييرية» بقلم السيد الشهيد (ره) صدرت عام ١٩٥٨م «لم تُنشر نشراً عاماً بعد».

(٢) نشرة «تحديد مرحلتنا الحاضرة» صدرت عام ١٩٥٩م السيد الشهيد قدس سره.

(٣) نشرة «دعوتنا إلى الإسلام دعوة تغييرية» بقلم السيد الشهيد (ره) صدرت عام ١٩٥٨م

وحضارتها واجتماعها وسياستها[1].

٣ ـ مشاريع لإصلاح الحوزة العلمية فكرياً وتوجهاً:

منذ منتصف العشرينات من هذا القرن اتجهت الحوزة العلمية في النجف الأشرف بعيداً عن ممارسة النشاط السياسي، وهموم الأمة وصار التوجه العام فيها للدراسات الحوزوية المألوفة، دون سواها من العلوم والاهتمامات، ومنذ نعومة أظفاره لاحظ السيد الشهيد ﵁ هذه الظاهرة السلبية، ومن أجل ذلك راح يبذل وسعه من أجل تغيير واقع الحوزة العلمية فكرياً وتوجهاً، وقد تبنىٰ لذلك ثلاثة مشاريع:

١ ـ مشروع «الدورة».

٢ ـ مشروع إصلاح المناهج.

٣ ـ مشروع التوجيه الفكري المباشر (المحاضرات).

فمشروع «الدورة» وان كان قد جرىٰ تنفيذه في ظل

---

(١) نشرة «تحديد مرحلتنا الحاضرة» السيد الشهيد ﵁ صدرت عام ١٩٥٩م.

الإمام الراحل السيد محسن الحكيم قدس سره إلاّ أنّه كان من متبنيات السيد الشهيد رضي الله عنه في ظل هذا المشورع يتوفر لطالب العلم من المعلومات والدروس ما يؤهله للحصول علىٰ وعي إسلامي وحياتي مناسب يوفر له إمكانات الإنسجام مع متطلّبات المرحلة التي تمر بها الأمة ، وكان أهم ما في هذه «الدورة» هو إختيار مناهج إسلامية وعلمية حديثة .

اما مشروع إصلاح المناهج ، فكان من أوضح مظاهره إصلاح علم الأصول الذي بقي زمناً طويلاً يعتمد علىٰ «كفاية الآخوند» بأسلوبها القديم ، فقد عمد المرجع الشهيد رضي الله عنه إلىٰ تبني عملية تبسيط منهج الأصول بشكل يسد حاجة طالب العلم ويغنيه عن الأساليب المعقدة ، وقد جاء كتابه «دروس في علم الأصول» تجربة رائدة لتطوير هذا المنهج العلمي الهام في حياة طالب العلم الحوزوي .

وتمثل محاضراته التوجيهية التي كان يلقيها علىٰ طلبة العلم إنموذجاً من نماذج عمليته في بناء ذهنية طالب الحوزة بناءً جديداً ، وشحنها بأُسس الوعي الإسلامي السياسي

والاجتماعي ، ولعل محاضرات «المحنة» و«السنن التأريخية في القرآن» ومحاضراته حول أهل البيت عليهم السلام مصاديق لهذه العملية البناءة .

٤ ـ المساهمة في مشروع جماعة العلماء :

جماعة العلماء في النجف الأشرف أسسها عدد من العلماء المجاهدين في النجف بعد شعورهم بضرورة النهوض بالمسؤولية الرسالية بعد سيطرة الشيوعيين العراقيين علىٰ الشارع العراقي ما بين عام ١٩٥٨ ـ ١٩٦١م ، والسيد الشهيد رضي الله عنه وان كان صاحب فكرة المشروع ، إلّا ان الشروط الزمنية (العمر) التي وضعتها الجماعة لم تسمح بدخوله عضواً في الجماعة غير ان تأثيره علىٰ الجماعة بواسطة خاله المرحوم آية الله الشيخ مرتضىٰ آل ياسين وآية الله السيد اسماعيل الصدر أخيه الأكبر ، كان كبيراً[١] ، حتىٰ بلغ من هذا التأثير ان تكون كثير من أفكار الجماعة قد انتجها القلم العبقري للسيد الشهيد رضي الله عنه .

---

(١) انظر المقدمة التي كتبها سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله للطبعة الأولىٰ لكتاب «رسالتنا» ص١٦/ ط. الدار الإسلامية ١٩٨١م ـ بيروت .

ثم ان كـلمة الافـتتاح لنـشرة «الأضـواء» التي كـانت تصدرها الجماعة كان السيد الشهيد (ره) يكتبها حـتىٰ العـدد الخامس[1] تحت عنوان «رسالتنا»[2].

٥ـ مشروع المرجعية الصالحة:

في بداية السبعينات انقدحت في فكر السيد الشهـيد ﵀ ووعيه فكرة «المرجعية الصالحة» ويبدو ان الهدف الأسـاسي الذي سعىٰ إليه العالم الصالح الشهيد ﵀ من وراء إطروحته في المرجعية الصالحة كان ايجاد قيادة إسلامية تحـتضن نهـضة الأمة في العراق وتقودها نحو أهـدافـها لا سـيما وان الجـهود الصالحة المباركة قد وفرت أُطراً و أجهزةً ومناخات للـنهضة ونموها في العراق:

وتتجلىٰ من خلال أُطروحة السيد الشهيد﵀ تلك الأُمور التالية:

١ ـ تهـدف الأُطـروحة إلىٰ تـبني المـرجـعية الصـالحة

(١) المصدر نفسه.
(٢) جمعت «افـتتاحيات» السـنة الأولىٰ للاضـواء بـاسم «رسـالتنا» وأصدرتها عام ١٩٦٩م مطبعة النعمان في النجف الأشرف.

«للأهداف الحقيقية التي يجب أن تسير المرجعية في سبيل تحقيقها لخدمة الإسلام وامتلاكها صورة واضحة محددة لهذه الأهداف فهي مرجعية هادفة بوضوح ووعي تتصرف دائماً علىٰ أساس تلك الأهداف بدلاً من ان تمارس تصرفات عشوائية وبروح تجزيئية وبدافع من ضغط الحاجات الجزئية المتجددة»[1].

٢ ـ تحويل المرجعية إلىٰ جهاز لا يتأثر بموت المرجع، فإذا توفي المرجع الصالح يكون بمقدور المرجع الصالح الذي يرثه ان يبدأ «ممارسة مسؤولياته من حيث انتهىٰ المرجع العام السابق بدلاً عن أن يبدأ من الصفر ويتحمل مشاق هذه البداية وما تتطلبه من جهود جانبية، وبهذا يتاح للمرجعية الاحتفاظ بهذه الجهود للأهداف وممارسة ألوان من التخطيط الطويل المدىٰ.

ويتم ذلك عن طريق شكل المرجعية الموضوعية، إذ في إطار المرجعية الموضوعية لا يوجد المرجع فقط، بل يوجد

---

(١) اطروحة المرجعية الصالحة للسيد الشهيد (ره): ص١٣ طبع جماعة العلماء المجاهدين في العراق.

المرجع كذات ويمارس العمل المرجعي الرشيد ، والشخص المرجع هو العنصر الذي يموت ، وأما الموضوع فهو ثابت[1] .

٣ ـ تعمل المرجعية الصالحة علىٰ حماية العمل الإسلامي القائم لدىٰ الأمة بواسطة «لجنة رعاية العمل الإسلامي والتعرف علىٰ مصاديقه في العالم الإسلامي وتكوين فكرة عن كل مصداق وبذل النصح والمعونة عند الحاجة»[2] .

لقد مثلث هذه الاطروحة طموحاً لدىٰ السيد الشهيد رضي الله عنه كان حريصاً علىٰ إيجادها علىٰ صعيد الواقع ، ولكنه رحل إلىٰ ربه الأعلىٰ شهيداً محتسباً دون ان يحقق آماله علىٰ صعيد النجف الأشرف الجريح ، وان كان انتصار الإمام الخميني قدس سره في إيران قد ضمد جراحه النازفة .

هذه هي المعالم الأساسية في حركة السيد الشهيد (ره) باتجاه النهضة الإسلامية في العراق والمنطقة ذكرناها إجمالاً .

ومن الجدير بالذكر ان السيد الشهيد رضوان الله عليه قد

(١) إطروحة المرجعية الصالحة للسيد الشهيد (ره) : ص١٣ طبع جماعة العلماء المجاهدين في العراق .
(٢) المصدر السابق : ص٩ .

بذل نشاطات أُخرىٰ داعمة لحركة النهضة في الأمة كأرساله العلماء الواعين ـ كوكلاء عنه ـ إلىٰ مناطق عديدة من العراق ليباشروا عملية التوعية الإسلامية إضافة إلىٰ موقفه الشجاع المساند لثورة الإسلام الكبرىٰ التي تفجرت في إيران بقيادة الإمام الخميني (قدس الله نفسه الزكية) ، رغم ما كلفه ذلك الموقف الصريح من شنآن الطغاة وتعجيلهم بالانتقام .

«والعاقبة للمتقين» .

ظاهرة التجديد والمعاصرة

في فكر السيد الصدر رضوان الله عليه

مقدمة :

من الحقائق الهامة التي ينبغي أن يلتفت اليها جيداً ان العالم الإسلامي قد واجه خلال قرنين من الزمان ثلاثة مستويات من الغزو : الغزو السياسي ، الغزو العسكري ، والغزو الثقافي . واذا كان الغزو السياسي قد باشره جواسيس الغرب في بلاد المسلمين أو عملاؤهم من السلاطين والولاة والضباط ، والسفراء وشركات تجارية ، واذا كانت الحملات العسكرية قد اضطلعت بدور الاحتلال لبعض الثغور والاقاليم الإسلامية ، فأن هذين اللونين من ألوان العدوان الغربي على بلادنا كانا يمهدان لغزو ثقافي واسع ، يلغي الثقافة الإسلامية ، بل والطابع الشرقي العام .

ولو قرأنا تاريخ المنطقة بتأمل بكل ما حوى من آلام

وفتن علىٰ مدار قرنين من الزمان أو يزيد ، لوجدنا ان أخطر ما واجهه المسلمون والشرقيون عموماً هو الغزو الثقافي الغربي لبلداننا ، فلم يحقق التبشير والثقافة الغربية خطواته الأولىٰ نحو النجاح إلّا عندما وجد ولاة عملاء أيام الحكم العثماني ، من أمثال إبراهيم باشا في بلاد الشام ، حيث انطلق المبشرون في عملهم في تلك البلاد في ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وفي مصر أيام العميل الفرنسي محمد علي باشا الكبير ـ كما يسميه التاريخ ـ ، كما لم ينتشر نفوذ الثقافة الغربية في بلاد المسلمين كذلك إلّا تحت رعاية الغزو العسكري كما جرىٰ ذلك في بلدان المسلمين التي سيطرت عليها الجيوش الغربية ، كما هو الحال في بلاد الشام ، والجزائر وغيرها . .

ولا ننسىٰ دور الحكام العملاء في توفير المناخات المناسبة لدعم حركة التغريب في بلاد المسلمين وبحركة ثقافية واسعة تملك ارصدة واقعية ضخمة كالتبشير والاستشراق ، والحركة التعليمية التابعة لأهداف الغزاة بكل مظاهرها ومصادرها ومواردها من المناهج ، إلىٰ المادة التعليمية ، ومن ثم الدرس والمعلم إلىٰ البعثات الدراسية إلىٰ أوربا .

أقول : بهذه الحركة التعليمية الواسعة المدعومة بأنظمة سياسية مدججة بالسلاح ومدعومة من قوىٰ النفوذ العالمي ، وقعت الهزيمة الفكرية والثقافية في بلاد المسلمين ، وانتصر الغالب علىٰ المغلوب في ثقافته وأفكاره إلىٰ درجة خطيرة ، خلافاً لما كان عليه المسلمون أيام الغزو المغولي المدمر لبلاد المسلمين ، حيث ما ان توقف اندفاع المغول ، حتىٰ انتصر المغلوب علىٰ الغالب ، فاعتنقت جيوش التتار دين الحق ، وخلعت وثنيتها لتدخل افواجاً في دين الله تعالىٰ وانصهر الغزاة في الأمة الإسلامية ، وساهموا في بناء الكيان العام لها .

الاّ اننا في هذه المرة هزمنا شر هزيمة ، وبرزت آثار الهزيمة في ابناء جلدتنا واضحة يدعون للذوبان في حضارة الرجل الأبيض ! !

لقد ظهر في بلاد الأناضول ضياء الب كوك كمنظر للذوبان والتبعية الثقافية ، وظهر كمال اتاتورك منفّذاً لأفكاره بإصرار أهوج يشبه إصرار البعثيين وأمثالهم من أصحاب الهوس «التقدمي الثوري !» وظهر في مصر سلامة موسىٰ ، وقاسم أمين ، ولطفي السيد ، وطه حسين ، وعلي

عبد الرزاق ، وعلىٰ الصعيد السياسي ظهر دعاة القومية الذين كان جمال عبد الناصر عصارتهم ، بل حصيلة أفكار المهزومين والعملاء الفكريين الذين ذكرت بعضهم .

لقد حاول طه حسين أن يهز أركان الإعجاز القرآني بكتابه الشعر الجاهلي ، ثم دعا صراحة لتغيير هوية مصر في مشروعه الثقافي اللاهث خلف الغرب : (مستقبل الثقافة في مصر) ، وكان علي عبد الرزاق في عقد الثلاثينات قد شكك ان يكون في الإسلام نظام حكم وبذل جهداً من أجل تكريس هذا الاتجاه في كتابه «نظام الحكم في الإسلام» ، وتناول آخرون جوانب أُخرىٰ وقد بلور ساطع الحصري «البديل القومي !» للإسلام في ضوء ثقافته الغربية وتطلعاته شطر أوربا ، وشهد العراق أمثال منيف الرزاز ، والياس فرح، وعفلق وعلي الوردي ، وهادي العلوي ، وسلم تنفيذ المشروع إلىٰ أحمد البكر ، وصدام واضرابهم .

وفي بلاد المسلمين الأخرىٰ أمثلة حية لهذه المسيرة الذليلة الجبانة . .

المسلمون في موقف الدفاع :

الحديث هنا يدور حول المواقف الثقافية لا المواقف السياسية ولا البطولات العسكرية للمسلمين . .

لقد تنبه المسلمون رويداً رويداً إلىٰ المؤامرة ، فهبوا في وجه العدوان الثقافي فحفروا الخنادق الدفاعية ، وهكذا ظهرت مجموعة كبيرة من التآليف ونشرت كثير من الأفكار الدفاعية الخجولة أو المنفعلة بالواقع ، لذا ، فقد شهدت الأربعينات من هذا القرن والخمسينات نمطاً من الفكر الدفاعي علىٰ المستوىٰ العلمي أو الفكري !

فقد ظهرت كتابات تفسر آيات من القرآن الكريم تفسيراً علمياً ، وفق النظريات التي تتداولها ألسنة الغربيين أو تصوراتهم ، كتفسير آيات في النظرية السديمية أو في الجاذبية أو كروية الأرض أو نظرية لامارك أو دارون ، حتىٰ لوىٰ البعض عنق الآيات ، ففسرها بالصواريخ والذرة وما إلىٰ ذلك ، كل ذلك من أجل أن يبرهن علىٰ أن الإسلام والقرآن قد حملا ما وصل إليه العلم الحديث كذلك . .

وعلىٰ مستوىٰ الفكر والتشريع ، جرت عمليات مشابهة لكنها من نمط آخر ، فقد ظهر الحديث علىٰ ألسنة المفكرين والكتّاب المسلمين عن الإشتراكية الإسلامية ! ! والديمقراطية في الإسلام ! ! كما تأثر البعض في أحاديثهم عن الإسلام بتفصيلات تلك المذاهب الإجتماعية ، ولك أن تقرأ مثلاً كتاب : إشتراكية الإسلام للدكتور مصطفىٰ السباعي ، وديمقراطية القومية العربية للدكتور عبد الله العربي ، والإسلام بين الإنصاف والجحود للدكتور حسن عبد الغني حسن ، والمجتمع الإسلامي بين النظرية والتطبيق للبهي الخولي ، بل في علمائنا من ظهر علىٰ لسانه مصطلحات العروبة ، والإشتراكية ، والديمقراطية وما إلىٰ ذلك . .

وهكذا كان إسلوب الدفاع لدىٰ المخلصين من أبناء الأمة لعقدين من الزمان أو أكثر يدفع إلىٰ تكييف الإسلام وقيمه حسب الموجات العلمية والفكرية التي زخر بها العالم يومذاك ، وربما أدىٰ ذلك التخبط المدافِع إلىٰ تقلبات في التفسير بمفهوم واحد غير مرة في فترات متقاربة حسب الموجات الفكرية والموضة التي تعم البلاد .

في خندف الهجوم:

ومنذ منتصف الخمسينات صار مسار الحركة الثقافية يتجه من خندق الدفاع إلىٰ خندق الهجوم، فقد ظهرت بوادر هذا التحول في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات في كتابات الشيخ عبدالأعلىٰ المودودي في كتاب «الربا»، «والدستور الإسلامي»، «وموجز تجديد الدين وإحيائه»، وما إلىٰ ذلك، وتأثر بهذا المشروع قلم سيد قطب، فكتب «العدالة الاجتماعية» وموسوعة «في ظلال القرآن»، و«خصائص التصور الإسلامي»، و«السلام العالمي والإسلام»، وختمها «بمعالم في الطريق»، وفي هذه المرحلة، أي في أوائل الخمسينات ظهر الشيخ محمد تقي النبهاني، في «المذهب الإقتصادي في الإسلام»، و«نظام الحكم في الإسلام»، وغيرها..

بيد أن ظهور هذه المؤلفات والأبحاث قد رافقه في الجانب الآخر تصاعد الهجمة لأتباع الحضارة الأوربية بشطريها

الشرقي والغربي، حيث إنتشر الفكر الماركسي، والإشتراكي، والفكر الإشتراكي الديمقراطي، وثقافة اليسار العربي، والدعوة إلىٰ الديمقراطية وما إلىٰ ذلك بشكل خطير، حتىٰ إنك لا تكاد تجد في تلك المرحلة ولا تسمع غير نتاج هذه الموجة الفكرية العاتية.

لقد كان العراق في الخمسينات ومطالع الستينات من أسوأ البلدان في المنطقة من ناحية فقره للثقافة الإسلامية الحديثة التي تستجيب لطموحات المسلم المعاصر. . لقد كان الشاب في تلك المرحلة لا يكاد يجد عن الإسلام غير الأبحاث الحوزوية التخصصية ذات الإسلوب التقليدي غير المنسجم مع ذوق العصر، أو الدراسات التاريخية التقليدية، وإذا وجد شيئاً، فإنه يجد بعض مؤلفات سيد قطب مثلاً.

لقد أعلن المرحوم الشيخ كاظم الحلفي المشرف التنفيذي لمجلة الأضواء التي صدرت عام ١٩٦٠م في كراس له أسمه «الله وأسماؤه الحُسنىٰ» طبع في بداية الستينات ان بعض شباب جامعة بغداد الشيعة يتأثرون بتآليف الشيخ النبهاني ككراس «الخلافة» سيء الصيت ـ مثلاً ـ.

ولقد أعلن المرحوم آية الله السيد جمال الهاشمي في مقدمة كتابه «أُصول الدين الإسلامي» عن عمق الصدمة التي ألمت بالأخيار من العلماء والمؤمنين حين فوجئوا ان المواكب الحسينية بعد ثورة تموز عام ١٩٥٨م كانت تشيد بالديمقراطية والإشتراكية.

وكانت المشكلة الرئيسية التي تعانيها الأمة ، خصوصاً الأجيال المتطلعة في منهج عرض الإسلام وقيمه وأحكامه لا في المضمون، فمضمون الإسلام محفوظ في القرآن والسنة وتصانيف العلماء ، ولكن المنهج الذي كان يعرض المضمون لا يتناسب وروح العصر الحديث أبداً .

السيد الصدر ضرورة المرحلة :

وفي تلك المرحلة العصيبة من تاريخنا ـ أواخر عقد الخمسينات وبداية الستينات علىٰ وجه التحديد ـ، حيث النكوص والتراجع أمام الثقافة الوافدة ، مما لا يدرك أبعادها إلّا من عاش تلك الفترة الزمنية الرهيبة .

في هذه المرحلة لمع نجم المفكر العملاق السيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه ، الذي حمل أعباء مواجهة المذاهب الاجتماعية

الأوربية بكل أَسسها ومفاهيمها مستفيداً من تجارب الماضين والمعاصرين له من المفكرين والفقهاء، ومضيفاً إلىٰ ذلك من نتاجات عبقريته العملاقة التي تميزت بالقدرة علىٰ البلورة والعطاء وفهم خصائص العصر وأدواته.

وهكذا وفق هذا المفكر العملاق أن يهاجم المادية في رؤاها العامة، ومرتكزاتها الأساسية في كتاب «فلسفتنا»، كما فعل في هجومه علىٰ البنية التحتية للفكر الماركسي واطروحة الديمقراطية الرأسمالية كما تجلىٰ ذلك في كتاب «اقتصادنا».

وبعد تفنيد الخصائص المذهبية للمدرسة الإشتراكية وخصائص المدرسة الرأسمالية الديمقراطية، عمد إلىٰ بلورة المذهب الاقتصادي للإسلام من خلال إحياء قضية الملكية، والأرض والتوزيع ودور السلطة في عملية توزيع الثروة، والمشكلة الاقتصادية والموقف من علاجها.

وهكذا وفر المفكر الشهيد الصدر مفردات عصرية للخطاب الإسلامي، تحتفظ بأعلىٰ درجات الأصالة، وتتسلح بأحدث وسائل المعاصرة، وقد تميزت نتاجات

السيد الصدر ﵀ بالمنهجية العلمية التي لم تتوفر عند أغلب المفكرين المسلمين المعاصرين ، الذين يجنح أكثرهم إلىٰ الأسلوب الخطابي ، والإستغراق في المنهجية الأدبية ، دون أن يعتمد نهجاً علمياً صارماً ـ كما وفق له سيدنا المفكر الكبير رضوان الله عليه ـ.

ان هذا الخطاب الثقافي العملاق ، الذي وفره السيد الشهيد الصدر ﵀ للنهضة الإسلامية والثقافة الإسلامية المعاصرة في مضمونها المبلور المميز وفي أدواتها التعبيرية الكفوءة وفي منهجيتها العلمية العصرية الواثقة . . ان هذا الخطاب لم يشعر بقيمته إلّا من عاش فترة الستينات في العراق حيث تلتهب الساحة يومذاك بصراع فكري رهيب بين أنصار الإشتراكية الماركسية والديمقراطية والقومية وقبالهم أنصار النهضة الإسلامية كل بأدواته التي يملك .

ولم يكن للإسلاميين يومذاك سلاح فاعل ومضمون مبلور قبل ظهور «فلسفتنا واقتصادنا» ، لقد كان «اقتصادنا» وغيره بحق سيفاً ـ وأي سيف ـ شهره الإسلاميون العاملون ببسالة واثقة في وجوه أنصار الفكر

الوافد الرخيص . . ولعلي لا أُبالغ إذا قلت : ان شطر ما حققناه من نصر فكري في الستينات كان بذلك الحسام الذي جرده السيد الصدر ﵀ من غمده . .

وهكذا ؛ فليس خيالاً مجنحاً ، ولا اماني عريضة ان ندعي ان منهجية السيد الصدر ﵀ في نتاجه الفكري عموماً والطريقة التي امتطاها لمواجهة الحركة الثقافية التغريبية في منحنياتها الإسلامية لم يألفها الخطاب الثقافي الإسلامي في المنطقة الإسلامية كلها .

فلقد عبرت نتاجاته الفكرية العملاقة عن عبقرية الثقافة الإسلامية وأصالتها وقدرتها علىٰ مواجهة الغزاة بطريقة لم تواجه بها «ثقافة» الرجل الأبيض ! منذ جاست جحافله خلال الديار الإسلامية المقدسة .

لقد أدرك السيد الشهيد ﵀ مكامن الخطر ، وأمسك برأس الخيط الذي ينتهي بالمسلمين إلىٰ إستئناف المسيرة ، وذلك بأن يأتوا البيوت من أبوابها . .

ولسنا بصدد الحديث عن مشاريع السيد الصدر المختلفة الهادفة إلىٰ بلورة وسائل النهضة الجديدة ، وانما يهمنا هنا

فحسب الحديث عن حركته التجديدية في مجال الثقافة والفكر.

لقد كان المفكر الشهيد رضي الله عنه يسعىٰ جاهداً ان يبرز عبقرية الثقافة الإسلامية من خلال عبقرية المنهج وعبقرية الطرح..

لقد كانت الأمة ـ خصوصاً في العراق ـ لا تعاني من عقدة تجاه المضمون الحقيقي للإسلام، إلّا انها كانت تعاني من مشكلة عدم عرض المضمون بأُسلوب عصري يفهمه الناس.

وهكذا شمّر المفكر الشهيد رضي الله عنه عن ساعد الجد ليعالج المشكلة من أساسها:

١ ـ فبدلاً من أن يتحدث ـ كما تتحدث به المصطلحات الفقهية مثلاً ـ عن آداب التجارة، والبيع الفضولي، والخيارات، والمساقاة، والإجارة وما إليها من معاملات مالية، إتجه رضوان الله عليه، إلىٰ إكتشاف المذهب الاقتصادي في هيكليته العامة، وفي أُطر هذه الهيكلية.

٢ ـ وبدلاً من ان يتحدث حول المعاملات المحرمة في

التجارة مثلاً يتجه إلىٰ الحديث حول الحرية في الإقتصاد الإسلامي .

٣ ـ وبدلاً من الحديث حول البطالة ، والفقر وحرمة الكسل عن كسب الرزق يدرس المشكلة الاقتصادية وكيف يعالجها الإسلام .

٤ ـ وبدلاً من أن يلجأ إلىٰ الحيل الشرعية ، يطرح مشروع البنك اللاربوي في الإسلام .

٥ ـ هذا ويتجنب السيد الشهيد رحمه الله بشكل كامل مصطلحات المذاهب الأخرىٰ ، ويبرز المصطلح الإسلامي والمنهج الإسلامي والمضمون الإسلامي في ثوب مبارك جديد .

لقد حافظ المفكر الكبير علىٰ أصالة الشريعة بشكل كامل ، مع التماس منهج تجديدي يمتطي صهوة المعاصرة بأعلىٰ درجاتها وأرفع مستوياتها كما يتضح ذلك من خلال مؤلفاته العملاقة جميعها . .

فجزاه الله خير الجزاء ، وحشره مع آبائه وساداته محمد وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام .

من معالم الدور الثقافي والسياسي

للشهيد الصدر رضي الله عنه

من خلال إسقراء واع لخـريطة الأحـداث السـياسية التي جرت علىٰ الساحة العراقية منذ مطالع هذا القـرن المـيلادي حتىٰ اليوم ، يتضح ان القيادة الدينية المباركة في العـراق قـد اتخذت ثلاثة قـرارات تـاريخية حـاسمة شكـلت إنـعطافاً في تاريخ العراق المعاصر:

١ ـ قــرار القـيادة الديـنية في العـراق لمـواجـهة الغـزو والإحتلال البريطاني الغادر للعراق علىٰ مدار عشر سـنوات متواصلة ، وقد جُسد هذا القرار في ثلاثة مـواقـف تـاريخية مخلدة :

أ ـ مـواجـهة الهـجمة البريـطانية أثـناء دخـول القـوات البريطانية للعراق بداية الحرب العـالمية الأولىٰ عـام ١٩١٤م حتىٰ سقوط بغداد ، حيث قاد المواجـهة السـيد محـمد سـعيد

الحبوبي ، والسيد مهدي الحيدري ، والشيخ مهدي الخالصي وأمثالهم من رجال العلم والجهاد ، الذين قادوا جحافل الأمة من أجل انقاذ العراق من جيوش الكفر التي جاست خلال الديار .

ب ـ تفجير ثورة شعبان الأولىٰ المعروفة بثورة العشرين الكبرىٰ الظافرة من أجل طرد الغزاة وإقامة الحكم الذي تختاره الأمة في العراق ، حيث كانت القيادة الدينية في النجف وكربلاء والكاظمية قد فجرت الثورة المذكورة وخططت لمسيرتها لعدة شهور ، وعلىٰ رأس العلماء المجاهدين الذين مارسوا ذلك الدور المرحوم الشيخ ميرزا محمد تقي الحائري الشيرازي ، وشيخ الشريعة الاصفهاني ، والشيخ مهدي الخالصي وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين .

جـ ـ مواجهة الحكومة الصُوَرية التي شكلها المندوب السامي البريطاني في العراق برئاسة العميل عبد الرحمن النقيب والموقف السلبي منها ، مما تسبب في ابعاد خيرة علماء العراق إلىٰ إيران بواسطة حكومة المجرم عبد المحسن السعدون ، وهي أول عملية نفي جماعي للعلماء من العراق في

العصر الحديث.

٢ ـ قرار القيادة الدينية في العراق بايقاف حالة الحرب إذا صحّ التعبير، وإبرام عقد الهدنة، وما ترتب علىٰ ذلك القرار من انسحاب القيادة الإسلامية العليا ومؤسساتها عن المواجهة، والتوجه لحفظ الكيان الداخلي للأمة والطائفة والحوزة الدينية خوفاً من ذوبانها في ظل مؤامرة دولية أشد خبثاً وخطراً من الغزوة الصليبية علىٰ الأمة في القرن الحادي عشر الميلادي.

وكان هذا القرار يلامس قرار الإمام الحسن السبط عليه‌السلام في مهادنة معاوية بن أبي سفيان بدرجة ما من حيث تقدير المصلحة أو من حيث مراعاة الظروف الذاتية والموضوعية..

ولا بد من قراءة واعية لوضع الأمة في العراق يومذاك، ووضع المنطقة، وحتىٰ وضع إيران التي أبعد اليها العلماء، حيث كان يحكمها رضا شاه صنيعة اليد التي أبعدت العلماء المجاهدين من العراق إلىٰ إيران..

ومن منا يستطيع أن يحكم علىٰ تلك القيادة الأصيلة بحكم ظالم، وهي التي قادت كفاح الأمة العسكري

والسياسي منذ دخول الإنجليز للعراق عام ١٩١٤م حتىٰ أواخر حزيران عام ١٩٢٣م ، حيث تم نفيهم الجماعي إلىٰ إيران .

٣ ـ القرار التاريخي الثالث : كان قرار تكييف المشروع السياسي الإسلامي للعراق والمنطقة في ضوء فقه مدرسة آل محمد صلىٰ الله عليهم أجمعين وفي ضوء أجواء سياسية واجتماعية أرحب .

وقد بدأ الاعداد لهذا المشروع السياسي المبارك في نهاية الخمسينات حيث الانفراج السياسي النسبي الذي شهده العراق بعد سقوط الملكية وقيام الحكم الجمهوري في أواسط تموز من عام ١٩٥٨م .

وكانت مستلزمات بلورة المشروع السياسي الإسلامي متوفرة جداً وذلك لتوفر مفردات أساسية للبناء :

أ ـ وجود مرجعية عليا رشيدة كان قطب رحاها الإمام الراحل السيد محسن الحكيم قدس الله نفسه الزكية ، وحوله كواكب من مراجع المسلمين ، قلّ نظيرهم في تاريخ العراق ، ولعل هذه المرجعية المذكورة من حيث آثارها وقدراتها

لا تختلف عن مرجعية بداية هذا القرن التي قادت الكفاح طوال عقد من الزمان ـ كما ذكرنا ـ.

ب ـ وجود حوزة علمية مزدهرة ومؤهلة للنهوض باعباء المسؤولية في ضوء الظروف الجديدة .

جـ ـ انتشار التحسس السياسي ، والثقافة العامة لدىٰ الأمة ، مما يؤهل طبقات واسعة منها للالتفاف حول أي مشروع سياسي تتبناه القيادة الدينية المباركة .

د ـ التغير في المعادلة السياسية في العراق والعالم نتيجة لتغير ميزان القوىٰ في العالم .

وفي هذه المرحلة من تاريخ العراق سطع نجم الفقيه العلوي المفكر العملاق السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه ، وقد تجلىٰ دوره في المفاصل التالية للمشروع الإسلامي السياسي الذي استقر في رحم الحوزة العلمية وبرعاية القيادة الدينية المعاصرة في العراق . .

أما أهم مفاصل مساهمات السيد الشهيد رضي الله عنه في هذا المشروع فهي ما يلي : «علماً بأن لغيره من رجال العلم والجهاد أدواراً أُخرىٰ» .

١ ـ توفير بديل فكري إسلامي مناسب للمرحلة : قد

لا تتضح عظمة هذه المهمة لأبناء هـذا الجـيل كـما اتـضحت لأبناء الجيل الذي عاش اواخر الخمسينات وبداية الستينات في العراق ، حيث كـان الفكـر المـاركسي والمـوجة القـومية الناصرية تسيطر علىٰ الشارع العراقي ، ولم يجد الباحث عـن الإسلام غير المؤلفات الحوزوية الإختصاصية القديمة ككـتب الأصول والفقه وما إليهـا التي ليس مـن شأنهـا أن تـعرض الإسـلام وأحكـامه بشكـل يسـاهم في اقـبال الأمـة عـليه ـكما ذكرنا ـ.

وبينما يهـزم الكـثير مـن النـاس أمـام الفكـر المـاركسي المعروف بشتىٰ الأساليب والصور التـعبيرية ، يـتصدىٰ فـقيه واع يجمع بين حـرارة الإيمـان وحـرارة الشـباب ، وحـرارة الحرص علىٰ الإسلام مـثل السـيد محـمد بـاقر الصـدر رضي الله عنه فينازل المـاركسية والاشـتراكـية والرأسمالـيـة والديمـقراطـية ويكشف زيفها للأمـة وتآمـرها عـلىٰ الإنسـانية ، ثم يـقدم البديل الإسلامي لعلاج مشاكل الإنسانية المعذبة من خـلال رسالة الدين الحق .

«وهكذا تجابه المـاركسية والرأسمالـيـة بكـتابي «فـلسفتنا

واقتصادنا» وسواهما، ويوفر المفكر الشهيد تَنِيُّ بذلك أمضى سلاح للأمة في معترك فكري وسياسي رهيب، لم يشعر بحقيقة ابعاده بشكل دقيق إلّا من عاش تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة.

وقد جاء الكتاب الأول مبرهناً علىٰ صحة النظرة الإسلامية للوجود، وتهافت النظريات الأخرىٰ كافة. وجاء «اقتصادنا» داحضاً للنظرية الإشتراكية والرأسمالية في الاقتصاد كاشفاً عن أصالة العلاج الإسلامي لمسائل الاقتصاد علىٰ مستوىٰ التملك والحرية الاقتصادية والمشكلة الاقتصادية والعدالة، ومشكلة التوزيع، ومسألة الأرض وما إليها، إضافة إلىٰ تفنيد المادية التأريخية كعقيدة يعتمدها الماركسيون في تبرير المنحىٰ الإقتصادي لديهم.

وقد كان للكتابين المذكورين ـ رغم جلالة ما كتبه يراع السيد الشهيد رضي الله عنه من تآليف أُخرىٰ ـ الدور الأكبر في رفد المسيرة الإسلامية في العراق ومواجهة الغزو الفكري الأوربي للعراق.

وهكذا وفر المفكر الشهيد الصدر مفردات عصرية

للخطاب الإسلامي ، تحتفظ بأعلىٰ درجات الأصالة ، وتتسلح بأحدث وسائل المعاصرة . وقد تميزت نتاجات السيد الصدر ﷺ بالمنهجية العلمية التي لم تتوفر عند أغلب المفكرين المسلمين المعاصرين ، الذين يجنح أكثرهم إلىٰ الاسلوب الخطابي أو الاستغراق في المنهجية الأدبية ، دون ان يعتمد نهجاً علمياً صارماً ـ كما وفق له سيدنا المفكر الكبير رضوان الله عليه ـ.

ان هذا الخطاب الثقافي العملاق ، الذي وفره السيد الشهيد الصدر ﷺ للنهضة الإسلامية وللثقافة الإسلامية المعاصرة في مضمونها المبلور المميز وفي ادواتها التعبيرية الكفوءة وفي منهجيتها العلمية العصرية الواثقة . . ان هذا الخطاب لم يشعر بقيمته إلّا من عاش فترة الستينات في العراق ، حيث تلتهب الساحة يومذاك بصراع فكري رهيب بين انصار الإشتراكية الماركسية والديمقراطية والقومية وقبالهم انصار النهضة الإسلامية كل بأدواته التي يملك .

ولم يكن للإسلاميين يومذاك سلاح فاعل ومضمون مبلور قبل ظهور «فلسفتنا واقتصادنا» لقد كان اقتصادنا

وغيره بحق سيفاً ـ وأي سيف ـ شهره الإسلاميون العاملون ببسالة واثقة في وجوه انصار الفكر الوافد الرخيص . . ولعلي لا أبالغ إذا قلت : ان شطر ما حققناه من نصر فكري في الستينات كان بذلك الحسام الذي جرده السيد الصدر ﷺ من غمده . .

وهكذا فليس خيالاً مجنحاً ، ولا اماني عريضة ان ندعي ان منهجية السيد الصدر ﷺ في نتاجة الفكري عموماً والطريقة التي امتطاها لمواجهة الحركة الثقافية التغريبية في منحنياتها الإسلامية لم يألفها الخطاب الثقافي الإسلامي في المنطقة الإسلامية كلها .

فلقد عبرت نتاجاته الفكرية العملاقة عن عبقرية الثقافة الإسلامية وأصالتها وقدرتها علىٰ مواجهة الغزاة بطريقة لم تواجه بها «ثقافة» الرجل الأبيض ! منذ جاست جحافله خلال الديار الإسلامية المقدسة»[1] .

٢ ـ المساهمة الفعلية في بلورة الإطروحة السياسية الإسلامية في ضوء ظروف الأمة وطموحاتها :

---

(١) انظر الدراسة السابقة بين ص٦٦ ـ ص٦٨ .

لقد سعت عبقرية هذا المفكر العملاق لتعميق ثلاثة محاور من أجل أن تتبلور آفاق الاطروحة السياسية الإسلامية في العراق :

أ ـ **المحور الأول** : اهتمام القيادة الدينية بعموم الأمة لتنمية وعيها الديني والإخلاقي ، ورفع مستوىٰ حسها السياسي ، وقد تبلور هذا الإهتمام بمجموع الأمة في مظاهر عديدة نذكر منها :

* نشر المكتبات الدينية العامة في طول البلاد وعرضها ، كمشروع للتوعية الجماهيرية علىٰ أوسع نطاق ، وقد حملت بؤرُ الخيرِ هذه اسمَ مؤسسها المرجع الراحل السيد محسن الحكيم قدس الله نفسه الزكية ، حيث بلغ ما افتتح في البلاد حوالي السبعين مكتبة دينية عامة . . تنهض بتوفير الكتاب ، والمحاضرة وتعقد الاجتماعات الدينية العامة ، وتعكس رأي الحركة الدينية في الأحداث في أغلب الأوقات من خلال البيان أو الخطاب أو ما إلىٰ ذلك .

* ومن مظاهر الاهتمام بالأمة نشرُ وكلاء المرجعية الدينية في طول البلاد وعرضها ليكونوا محاور لبث الهدىٰ

ونشر الثقافة، وترويج الأحكام..

* ومن مظاهر هذه المهمة: رعاية المنبر الحسيني وتطويره مآتم ومواكب، وقد تطورت المدرسة الحسينية بفعل رعاية الحوزة العلمية في النجف وكربلاء تطوراً عالياً حتىٰ بلغ الحال ان ينتظم شباب الجامعة في مواكب حسينية رائعة في العاشر من المحرم الحرام كل عام، تستقبلها القيادة الدينية العليا بكلمة توجيهية كريمة بجوار سيد الشهداء الحسين السبط عليه السلام.

هذه بعض مظاهر هذا المحور، وهناك مصاديق أخرىٰ كثيرة.

ب ـ المحور الثاني في الاطروحة: تشكيل تنظيم إسلامي سياسي مبلور لسد الحاجة في هذا الجانب من الحركة الدينية العامة، حيث انتظم في هذا الاطار آلاف الشباب من أبناء العراق الطيبين، تحت رعاية القيادة الدينية العامة ومفاصلها المجاهدة.

جـ ـ بلورة قيادة العلماء للمسيرة الإسلامية المعاصرة: من خلال إطروحة المرجعية الموضوعية التي تبناها الفقيه

الشهيد قدس سره .

وأهم محاور هذه الفكرة ما يلي :

١ ـ ايجاد قيادة سياسية ذات بعد شرعي تحتضن نهضة الأمة في العراق وتقودها نحو أهدافها .

٢ ـ تهدف الاطروحة إلىٰ تبني المرجعية الصالحة «للأهداف الحقيقية التي يجب ان تسير المرجعية في سبيل تحقيقها لخدمة الإسلام وامتلاكها صورة واضحة محددة لهذه الأهداف ، فهي مرجعية هادفة بوضوح ووعي تتصرف دائماً علىٰ أساس الأهداف» علىٰ حد قول السيد الشهيد .

٣ ـ تحويل المرجعية إلىٰ جهاز لا يتأثر بموت المرجع ، فإذا توفي المرجع الصالح يكون بمقدور المرجع الصالح الذي يرثه أن يبدأ «ممارسة مسؤولياته من حيث انتهىٰ المرجع العام السابق بدلاً عن أن يبدأ من الصفر ويتحمل مشاق هذه البداية وما تتطلبه من جهود جانبية ، وبهذا يتاح للمرجعية الاحتفاظ بهذه الجهود والأهداف وممارسة الوان من التخطيط الطويل المدىٰ .

ويتم ذلك عن طريق شكل المرجعية الموضوعية إذ في

إطار المرجعية الموضوعية لا يوجد المرجع فقط ، بل يوجد المرجع كذات ويمارس العمل المرجعي الرشيد ، والشخص المرجع هو العنصر الذي يموت ، وأما الموضوع فهو ثابت » . علىٰ حد تعبير المرجع الشهيد ﷺ .

٤ ـ تعمل المرجعية الصالحة علىٰ حماية العمل الإسلامي القائم لدىٰ الأمة بواسطة «لجنة رعاية العمل الإسلامي والتعرف علىٰ مصاديقه في العالم الإسلامي وتكوين فكرة عن كل مصداق وبذل النصح والمعونة عند الحاجة» .

هذه أهم المفاصل التي يحتويها المشروع الإسلامي السياسي المعاصر الذي انتجته عبقرية القيادة الدينية المباركة في النجف الأشرف ، وكربلاء المقدسة والكاظمية الشريفة حيث سارت عملية التطابق بين أهداف هذه المفاصل متضامنة متكاملة تحت ظل قيادة دينية شرعية مباركة . .

وما لم ترعَ الحركة الإسلامية العراقية هذه الحقائق الثلاث المكونة للمشروع السياسي الإسلامي الذي تبلور في أواخر الخمسينات ومطلع الستينات ، علىٰ يد رجال العلم والجهاد في هذه الأمة والطائفة ، فأن خللاً خطيراً سيبقىٰ مواكباً

لمسيرتنا الحاضرة والمستقبلية ، واذا لم ينتبه المخلصون بجـدية إلىٰ هذه الحقائق ويعملوا علىٰ مـراعـاتها ، فأنهـم يـتحملون وزراً عظيماً في الدنيا والآخرة .

مع السنن التأريخية

في فكر السيد الصدر رضي الله عنه

مقدمة :

منذ عصور بعيدة والمهتمون بشؤون الحضارة الإنسانية ، وحركة أحداث التاريخ يستقرئون ما وراء الأحداث الكبرىٰ في تاريخ الإنسان ، ويضعون لها التفسيرات ، ويتصورون خلفياتها المحرِكة ، وقد تباينت آراء المفكرين والفلاسفة في تصورهم للخلفيات المحرِكة والفاعلة في صنع الأحداث الكبرىٰ في التاريخ .

فبعضهم تصور ان العامل الجغرافي هو الحاكم والفيصل في حركة الأحداث ، فالأمة التي تمتلك ثروات طبيعية من ماء ، وتراب ، ومناخ مناسب وثروات باطنية مناسبة أقدر من غيرها علىٰ صناعة الحضارة في زعم هذا الفريق من الفلاسفة .

وبعض من المفكرين افترض ان العامل الجمالي وظهور الفن في أمة ما باعث أساس لنهضتها وحركتها نحو المجد، ويفترض هذا الفريق من المفكرين ان نهضة أوربا الحديثة بدأت بحركة الفن الحديث من رسم ونحت وما إلىٰ ذلك . . .

وفريق يتجه إلىٰ العامل الروحي كأساس في حركة الأحداث..

ومنهم من يرىٰ ان امتلاك «القوة» هي العامل المؤثر في حركة الأحداث، وصناعة الحضارة وبعكسها يقع العكس .

وبعضهم من يحكّم وسائل الانتاج في صيرورة الأحداث..

وقد لعب العامل الواحد دوراً مركزياً في بلورة نظريات الكثير من المفكرين حول الحضارة والتاريخ ابتداء من ماركس إلىٰ فرويد إلىٰ سارتر إلىٰ غيرهم . .

وفي العالم الإسلامي ، تأثر الموقف العام للمثقفين ورواد الإصلاح عموماً بالثقافة الأوربية حيث تأثر مثقفونا بالموجات الفكرية هناك بشأن البناء الحضاري وحركة التاريخ وما إليها ، لذا، فأنك لا تكاد تجد ـ لعدة عقود من

الزمان ـ غير المتأثرين بماركس «المادية التأريخية»، وفرويد «أساسية العامل الجنسي»، وداروون «في موضوع الصراع من أجل البقاء» وبرتراندرسل «مبدأ القوة» وجون بول سارتر «الوجودية» ـ وغيرهم.

وحتىٰ الذين كتبوا حول سنن التاريخ مستلهمين القرآن الكريم في ذلك، وقع بعضهم تحت عامل التأثر بالفيلسوف البريطاني توينبي في دراسته للتاريخ كما هو حال المفكر المرحوم مالك بن نبي في فصل الدورة الخالدة من دراسته «شروط النهضة».

وأشهر من كتب من الإسلاميين حول التاريخ والحضارة في العقود الأخيرة هما السيد الشهيد آية الله العظمىٰ السيد محمد باقر الصدر ﵀ وآية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين.

وقد بلور السيد الشهيد ﵀ أفكاره حول قوانين حركة التاريخ ضمن مجموعة من المحاضرات في تفسير القرآن الكريم ألقاها بين ١٧ / جمادى الأولىٰ من عام ١٣٩٩هـ لغاية رجب المرجب من نفس العام، حيث جمعت تلك

المحاضرات القيمة في كتاب سمي بالمدرسة القرآنية..

أما الشيخ شمس الدين، فقد كان موفقاً في دراسته حول «حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام» التي ظهرت طبعتها الأولىٰ في بيروت عام ١٩٨٥م..

هذا، ومن الجدير ذكره، ان السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه له غير ما ذكرنا مجموعة من الأحاديث المتناثرة حول قوانين حركة التاريخ وصنع الحضارة وسقوطها تارة في مقالات تفرضها المناسبات كحديثه الذي نشرته مجلة الأضواء النجفية في عددها الخاص الصادر في ١٥ شوال ١٣٨٠هـ مفهوم تاريخي للإنسانية أو في مناقشاته المادية التاريخيه في ثنايا «فلسفتنا» و«اقتصادنا» أو في كتاب المدرسة الإسلامية..

ومن الجدير ذكره، أن السيد الشهيد الصدر رضي الله عنه لم يكن مؤرخاً يهتم بسرد الوقائع وتحليلها وربطها، وانما كان يتعامل مع التاريخ باعتبار السيد الشهيد رضي الله عنه رجل رسالة وعقيدة، ورائد نهضة وحركة من أجل استئناف المسلم لوجوده الحضاري علىٰ ظهر هذا الكوكب للخلاص من

كبوته، وبعده عن المسيرة الهادية..

ورغم اهتمام السيد الصدر ﵀ في بلورة السنن التي تحكم مسيرة التاريخ حسب ما يراها القرآن المجيد، وتقررها كلمات الله عزّ وجلّ في هذه المحاضرات المخلَّدة، فأننا نلاحظ ان الظروف لم تكن مهيأة أن توفر للسيد الشهيد ﵀ ان يطرح عموم تصوراته المشربة بروح القرآن الكريم حول مسيرة التاريخ، والمؤثرات الفاعلة في حركته.. لأن هذه المحاضرات قد ألقيت في الأشهر الأخيرة من حياته الشريفة، ـ حيث استشهد علىٰ يد الطغمة البعثية الكافرة الحاكمة في العراق بعد القائه لآخر محاضرة من هذه المحاضرات القيمة بحوالي عشرة أشهر ـ.

*** السنن الحاكمة في التايخ كما استوحاها السيد الشهيد﵀ من كلمات الله عزّ وجلّ**: ليس بوسع حديث مقتضب ـ كهذا الحديث ـ ان يستوعب كافة المفاهيم التي استوحاها فقيد الفكر الشهيد الصدر ﵀ من دراسته المتأنية للقرآن الكريم، خصوصاً الآيات التي تدور حول القوانين التي تحرك التاريخ الإنساني، وتفعل فعلها الايجابي

أو السلبي فيه .

الّا ان بوسع هذا البحث الموجز فحسب ان يشير إلىٰ المحاور المركزية التي شكلت الهيكل العام لما استوجاه السيد الشهيد ﵀ من كلمات الله عزّ وجلّ بشأن القوانين المتحكمة بصنع أحداث التاريخ الكبرىٰ في حياة الإنسان .

فنقول : ان من الملاحظ ان يراع السيد الشهيد ﵀ قد تناول مسألة قوانين التاريخ في ضوء آيات الله تعالىٰ وكلماته التي حملها كتاب الله المجيد ، وكان تناوله لها من جوانب عديدة حسب ما صدعت به الآيات ، وحسب الفعل الواقعي لهذه السنن في مسيرة الإنسان .

ومن أجل ذلك ، فأنك تجد بين ثنايا أحاديث المفكر الشهيد (ره) حول هذه المسألة الفعل الايجابي والفعل السلبي ، أي أنك تلحظ القوانين التاريخية ، وهي تبني الحضارة ، وتتسلق بالإنسان إلىٰ الهرم ، ثم تراها وهي تنزل بالإنسان إلىٰ أسفل سافلين ، ولكل من هذه الظواهر شروطها ومستلزماتها وحيثياتها ، انك تقرأ عند السيد الصدر ﵀ فعل السنن التاريخية التي أودعها الخالق

جلّ وعلا في هذه الحياة، وهي تثير الحياة البشرية من حولها، حيث تورق المسيرة الإنسانية وتنبت من كل زوج بهيج، ثم تقرأ كيف تذبل الحياة وتذوي، ثم يهيج اخضرارها فيصفر ثم يكون حطاماً، كل ذلك وفق عوامل وشروط، وها نحن نسجل أهم السنن التأريخية الخالدة التي استوحاها فقيد المعرفة من نمير المعرفة :

١ ـ التغير في حياة الأمم قضية شرطية :

من ابرز السنن الحاكمة في مسيرة الإنسان عبر وجوده علىٰ ظهر هذا الكوكب، هو ان التغير والتحول في حياة الإنسان منوط بالإنسان نفسه، فهو الذي يحدد مصيره في مقياس الخير والشر ومقياس الذلة والعزة، وفي اطار الصعود والنزول، فقد شاء الله عزّوجلّ ان تكون ارادته جلّ وعلا في مسألة التغيير في حياة الإنسان منسجمة مع ارادة الإنسان نفسه، فإذا إختارت الجماعات الإنسانية طريق العزة والمجد والسمو، انسجمعت مشيئة الله تعالىٰ مع هذه الارادة، وجاء الامداد الغيبي لتحقيق أمل الجماعات المصممة علىٰ صنع المجد.

وان اختارت البشرية سبل الضلال المعوجة ، وتنكبت الصراط ، واتخذت لنفسها طريق الذلة والهبوط والعدوان ، تعرضت لقانون الإملاء والإستدراج حتىٰ تصل الهاوية الحتمية . .

وقد استلهم السيد الشهيد الصدر ﷺ هذا المفهوم من قوله تعالىٰ : ﴿ان الله لا يغيّر ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم..﴾[1] ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها علىٰ قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم﴾ .

كما ان عدداً من الآيات الكريمة مما ذكرها السيد الفقيد ﷺ او لم يذكرها ضمن أبحاثه القيمة تؤكد هذه المضامين من قبيل قوله تعالىٰ : ﴿وان لو استقاموا علىٰ الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . .﴾[2] .

﴿والذين اهتدوا زادهم هدىٰ﴾ .

يقول السيد الشهيد ﷺ ما يلي :

«هذه السنة التأريخية للقرآن بينت بلغة القضية الشرطية

---

(١) سورة الرعد : ١١ .

(٢) سورة الجن : ١٦ .

لان مرجع هذا المفاد القرآني إلىٰ ان هناك علاقة بين تغييرين : بين تغيير المحتوىٰ الداخلي للإنسان وتغيير الوضع الظاهري للبشرية والإنسانية ، مفاد هذه العلاقة قضية شرطية ، انه متىٰ ما وجد ذاك التغيير في أنفس القوم وجد هذا التغيير في بناء القوم وكيان القوم ، هذه القضية شرطية بيّن القانون فيها بلغة القضية الشرطية»[1] .

ويقول أيضاً : ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم﴾.

التغيير هنا أسند اليهم فهو فعلهم ، ابداعهم وارادتهم . اذن السنة التاريخية حينما تصاغ بلغة القضية الشرطية ، وحينما يحتمل ابداع الإنسان واختياره موضوع الشرط في هذه القضية الشرطية ، في مثل هذه الحالة تصبح هذه السنة متلائمة تماماً مع اختيار الإنسان، بل ان السنة حينئذ تغطي اختيار الإنسان ، تزيده اختياراً وقدرة وتمكناً من التصرف في موقفه»[2] .

وهكذا يؤكد السيد الشهيد ﵀ علىٰ أهمية فعل الإنسان

---

(١) المدرسة القرآنية : محاضرات الإمام محمد باقر الصدر ﵀ : ص ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ١١٠ .

وأثره في صنع مصيره في التاريخ، وتحديد موقعه المختار من قبله.

٢ ـ الإسلام قانون تاريخي لا يمكن تخطيه :

الإسلام حين يعرضه القرآن الكريم، يعرضه بلحاظين :

أ ـ باعتباره تشريعاً إلٰهياً أو قراراً ربانياً، يدعو رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن بعده من أئمة الهدىٰ الناس إلىٰ التزامه، والتمسك بمضامينه وقيمه العظيمة، فهو بهذا ارادة تشريعية.

ب ـ ولكن الإسلام من جانب آخر سنّة إلٰهية تكوينية إذ هو فطرة الله تعالىٰ التي فطر عليها الناس، وجبلوا عليها، تماماً كما جبلوا علىٰ الغرائز المركزية التي ركبت في كيان الإنسان.

وقد عبّرت الآية الثالثة عشرة من سورة الشورىٰ عن الحالة التشريعية للإسلام، كرسالة وقوانين إلٰهية ينبغي علىٰ الناس ان ينضبطوا بها، ويتمسكوا : **﴿ شرع لكم من الدين ما وصىٰ به نوحاً والذي أوحينا اليك، وما وصينا به إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ ان أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه، كبر علىٰ**

المشركين ما تدعوهم إليه﴾ ، كما عبّرت الآية الثلاثون من سورة الروم عن كون الإسلام سنّة تاريخية ترتبط بتكوين الإنسان ، وان مخالفة هذه السنة يعني التنكر للطبيعة التي جبل عليها الإنسان ، الأمر الذي يؤدي بالمخالفين والمتنكرين لهذه السنة ، ويسوقهم ومن معهم إلىٰ عقاب تاريخي صارم لمخالفتهم لسنة الحياة الطبيعية : **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** .

ان مخالفة هذه السنة ، وهذا القانون ، ومحاولة تبديله أو الغائه تحت أي عذر سيؤدي إلىٰ حلول عقاب تاريخي طبيعي عاجل ، ولكنه عاجل بحساب السنّة التاريخية ، لا بحسابات الفرد العادية وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : **﴿ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾**[1] .

ويمتاز هذا العقاب عن غيره ، انه شامل للجماعة التي تحمّلت اعباء التجاوز علىٰ الدين كسنة ، وليس يحل علىٰ

---

(١) سورة الحج : ٤٧ .

افراد معينين كـالعذاب الذي يحـل بسـبب المخـالفة الشرعـية المعهودة[1] وتشبه حالة كون الإسلام سنة تـاريخية تـتعرض الجماعات المخالفة لها إلىٰ الدمار .. تشبه هـذه الحـالة : حـالة مخالفة سنة الزواج بين الجـنسين التي جـعلها الله تـعالىٰ هـي الوضع الأمثل للعلاقات الجـنسية بـين الذكـر والأنـثىٰ ، فأن مخالفة هذه السنة الطـبيعية ومـقاومتها ، والانحـراف بهـا إلىٰ الشذوذ أو المحاربة سيؤدي حتماً إلىٰ تدمير الجماعات الواقـعة تحت تأثير هذه المخالفة لهذا القانون الطبيعي ـكما أفاد السـيد الشهيد الصدر ـ.

٣ ـ هناك فرق بين الرسالة الإلٰهية والجماعات المندمجة بخطها من ناحية صلتها بالله عزّ وجلّ :

فالرسالة الإلٰهية تـنتمي إلىٰ الله عـزّ وجـلّ في مـضمونها وتمثل قيمَه وإرادته التشريعية التي لا تخضع للزمان والمكان، اما الجماعات المتمسكة بهذه الرسالة المباركة ، فـانها تخـضع للعامل الزمني والمكاني ، وتسـير في نمـوها وارتـقائها أو في نصرها واخفاقها ضمن الشروط المـوضوعية المـنسجمة مـع

(١) المدرسة القرآنية: محاضرات سماحة محمد باقر الصدر: ص ١١٠.

سنن التاريخ ، ففوز الجماعات المؤمنة بالرسالة يكون وفق شروط موضوعية ، كذلك اخفاقها يكون تابعاً لشروط موضوعية فعلية .

وهكذا ، فأن حركة التغيير لدىٰ الجماعات المؤمنة باتجاه القمة أو بالاتجاه العكسي ، انما يسير وفق جهد بشري يلتمس مقومات وجوده من الواقع الموضوعي والذاتي . .

وهكذا يتحدد الفرق بين الجماعة في حركتها الفعلية الواقعية ، حيث مضمونها البشري المحكوم بالزمان والمكان وبين رسالتها السماوية ذات المضمون الرباني والهوية الإلٰهية ..

ومن هنا ، فلا بد للجماعة المؤمنة أن تبذل وسعها من أجل البحث عن أفضل الوسائل للعمل والتغيير الذي يجعلها موفقة في استثمار السنن التاريخية بأعلىٰ درجات الاستثمار . .

كما ان علىٰ الجماعات المسلمة أن تعمل وسعها لاكتشاف سنن التاريخ والتحكم فيها من أجل أن تتسلق الجماعات قمة الهرم بأقدام الجدية والواقعية وحسن الأداء والاستفادة من الامكانات المادية والمعنوية المتاحة .

٤ ـ للأمم والشعوب آجال ـ كما للأفراد ـ:

وفي ضوء آيات الكتاب العزيز يستنبط السيد الشهيد ﵀ ان للأمم والجماعات والشعوب آجالاً محددة ـ كما للأفراد ـ فتقضي نحبها كما يقضي الأفراد ، فالأمم والجماعات في منطق القرآن الكريم ، لها حياة ، وحركة ، وموت ، كما الأفراد يحيون ويتحركون ويموتون : ﴿**لكل امة أجل اذا جاء أجلهم ، فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾[1] .

﴿**وما أهلكنا من قرية إلّا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون**﴾[2] .

ويقصد القرآن في هذا النمط من الآيات ، ان الموت لا يحل بكيان الأفراد ، لأن الأفراد لا يموتون دفعة واحدة ، وانما الجماعة والأمة بوجودها المعنوي ـ كأمة أو كجماعة ـ هي التي تموت ، فيقال حينئذ سقطت الدولة الفلانية رغم وجود افرادها ، وسقط المجتمع الفلاني والمعسكر الكذائي رغم

---

(١) سورة يونس : ٤٩ .

(٢) سورة الحجر : ٤ ـ ٥ .

الوجـود المـادي للأفـراد ، فـالأجل المـقصود هـنا بـالنسبة للجماعات يعبر عن حالة متعلقة بالجماعة ووجودها المعنوي ولا تتعلق بالأفراد وبوجودهم الفردي :

﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مـوئلاً . وتـلك القرىٰ أهلكناهم لما ظلموا ، وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾[1] .

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك علىٰ ظـهرها مـن دابة، ولكن يؤخرهم إلىٰ أجل مسمىٰ فإذا جاء أجلهم ، فأن الله كان بعباده بصيرا﴾[2] .

وهذا الموعد المحدد لهـلاك الأمـم لا يـقصد بـه هـلاك في الآخرة، ولا موعد الهلاك الأخروي ، فالهلاك هـنا : هـلاك دنـيوي عـلىٰ الأرض ويـصيب الأمـم التي تـطغىٰ وتـظلم وتستكبر ، وهذا العقاب الدنيوي عادة يصيب الجـميع حـتىٰ الصالحين في ذلك المجتمع ، ولذا ، فقد شمل التيه الذي أصـاب بني إسرائيل حتىٰ موسىٰ كليم الله بـاعتباره جـزء مـن هـذه

---

(١) سورة الكهف : ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) سورة فاطر : ٤٥ .

الأمة التي اصابها العقاب بعد ظلمٍ منها.. والحسين سبط خاتم النبيين ﷺ تعرض للقتل والسلب بشكل فظيع حينما حلّ البلاء بالمسلمين في عهد بني أمية ويزيدهم الطاغية..

هذا هو منطق سنة الله تعالىٰ في الأمم : **﴿واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا ان الله شديد العقاب﴾**(١).

٥ ـ ما تقوم دعوة للحق إلاّ ويصدُّها دعاة الباطل :

وهذه سنة تاريخية أيضاً ان دعوة الحق أو دولة الحق لا بد ان يواجهها الطواغيت وأصحاب الترف، والمسرفون بالمنابذة والعدوان..

فهناك علاقة تناقض بين دعوة الحق والطغاة والمترفين : **﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلّا قال مترفوها : انا بما ارسلتم به كافرون. وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾**(٢).

ومن هنا، فأن الصراع سيبقىٰ سجالاً بين دعوات الحق،

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥.

(٢) سورة سبأ : ٣٤ ـ ٣٥.

وأهل الباطل ، ولا بد أن يتعرض أهل الحق للعدوان والقتل، ولذا ، لا بد أن يحتاطوا لأمرهم ، ويتواصوا بالحق ، ويتواصوا بالصبر ، يعدّوا للأمر عدته المادية والمعنوية لمواجهة الموقف ، والصمود عند اللقاء ، ومعرفة عقبات الطريق . .

❋ ❋ ❋

هذه بعض القوانين التاريخية التي سجلها القرآن الكريم لتتدبرها الأمم ، وتعتبر بها وتستلهمها في مسيرتها نحو الحق ، وقد ألقىٰ السيد الشهيد ﵀ عليها الأضواء في محاضراته القيمة التي أشرنا إليها في مطلع هذا الحديث .

﴿والعاقبة للمتقين﴾

الفهرست

الموضوع | الصفحة

السيد الصدر
رائد حركة التغيير في الأمة

ظاهرة التجديد والمعاصرة

في فكر السيد الصدر

من معالم الدور الثقافي والسياسي

مع السنن التاريخية

في فكر السيد الصدر

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ الزهراء فاطمة بنت محمد ﷺ طُبع مرتين .

٢ ـ سيرة المصطفىٰ ﷺ طُبع مرتين .

٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عليه السلام طُبع مرتين .

٤ ـ ثورة الحسين ﷺ نظرة في الخلفيات طُبع مرتين.

٥ ـ الإمام محمد بن علي الجواد عليهما السلام طُبع مرة واحدة .

٦ ـ الإسلام ورسالته الخالدة طُبع مرتين .

٧ ـ ابحاث في شؤون النهضة طُبع مرتين .

٨ ـ مجموعة كراسات وأبحاث أُخرىٰ .

٩ ـ الإمامة في الرسالة الإسلامية .

١٠ ـ آية التطهير دراسة في المداليل والأهداف .

١١ ـ سيرة الأئمة عليهم السلام محاولة لتقييم المنهج .



▪ قلما يشهد التاريخ نموذجاً من الرجال يقدم «اطروحة الخلاص» ويتحرك بمستوى المضمون على طريق القيادة لأمته للوصول بها إلى ساحل الخلاص حيث يبرز في هذه الظاهرة «المفكر القائد» بوضوح وقوة.

▪ لقد كان محمد باقر الصدر ﵁ مصداقاً حياً لظاهرة «المفكر القائد»، وقد تحرك على مستوى هذه الظاهرة حتى تُوج حياته بالشهادة في سبيل الله تعالى.

▪ محمد باقر الصدر كان عَلَماً في الفكر الإسلامي والإنساني قلما يجود الزمان بمثله.

▪ واذا كانت الأمة الإسلامية لم يتيسر لها بعد أن تفهم هذا الرجل العملاق في فكره وعطائه وخصبه «لظروف ذاتية وموضوعية» فان الصدر سيتحول في القادم من أيام أمتنا الإسلامية وعلى طول الوطن الإسلامي الكبير إلى «قضية» ومنبع تنهل منه الأجيال، وتستلهم منه الأصالة والوضوح والقوة والشموخ.

▪ وأحسب أن شهادة محمد باقر الصدر، ومظلوميته، وما لاقى من العنت في سبيل الله ستعجل في تحويله إلى «قضية إسلامية» تتحرك بمساحة خارطة العالم الإسلامي كله!!

▪ كما ان محمد باقر الصدر سيتحول إلى «ثأر تأريخي» تحمله أجيال الأُمة.

▪ واذا كانت صيحات «التوابين» قد تأخرت قليلاً عن اعلان الزحف لادراك الثأر من يزيد عراق اليوم وزبانيته، فأن هذه الصيحات تنتظر «ساعة صفر محددة».

▪ ويبدو ان توابي هذا العصر سيحملون راية «المختار الثقفي» كي لا تتكرر «عين الوردة» من جديد، ولكي لايكون الزحف من أجل التكفير عن ذنب يؤنب ضمائر الرجال فقط، وانما من أجل أن تتحقق أهداف الشهيد وتطهر أرض العراق من رجس الصليبية الطائفية الحاقدة، وتقوم دولة القرآن.

من منشورات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق